الخريف الأخير

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

www.alnokhoba.com

1441 هـ – 2019 م

رقم الإيداع: 26303 / 2019

الترقيم الدولي: 8 – 417 – 838 – 977 – 978

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق في بغداد 3773 لسنة 2019

الكتاب: الخريف الأخير

المؤلف: عادل رافع الهاشمي

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

الخريف الأخير

رواية

عادل رافع الهاشمي

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2019

أشد ساعات اليوم ظلمة هي تلك التي تسبق طلوع الشمس.

باولو كويلو

الاهداء

الى .... أرواح الذين غادرونا وفي قلوبهم لهفة

الى .... الذين شهدوا المأساة ولا زالت تعيش

معهم

الفصل الأول

أنين النواعير

مَن يَسندُ ظِلّاً لِجدارٍ

يَتَقاوى من غيرِ أنينْ ؟!

ولِأنّا نسلٌ عناوينْ

تغزِلُنا الآهاتُ كِباراً

فنَشيبُ بعُمرِ العشرين ... .؟!

عبد الستار المازالذهب

1

ما الذي يستفزني للكتابة، ما الذي يستفز إنساناً لأن يكتب بعد الستين، أيكون ذلك الألم الذي يعتصر قلبي كلما مرت صورة من صور الماضي أمام عيني، أو ربما تلك المشاهد التي ما انفكت تحز بضميري ولا استطيع الخلاص منها، وكيف يمكن التخلص منها؟ إنها حياتي وحياة من عشت معهم.

قد تكون الذاكرة طرية عندما تكتب عن قصة حب، أو ليلة غرام، أو أمسية ضحك ومرح، أو حتى رحلة سعيدة على ضفاف الفرات في صباحات الاعياد، لكنها لن تكون كذلك عندما تكتب عن الألم والضياع والموت الجماعي الممزوج بالحزن والمصائب الكبيرة، رغم ان مصائبنا اليوم كلها كبيرة، حتى ان الوطن لم يعد يخجل من مصائبه التي ضاقت بها حتى مساحته، لم يعد يخجل حتى من قتل أبناءه والإستمتاع بشرب دمائهم. اذن عليَّ أن أكتب شيئا لن أمزقه بعد حين، أكتب قصص الذين ماتوا وهم أحياء بيننا، وقصص الأحياء الذين يعيشون بيننا لكنهم أموات.

****

حديثة ....

تلك المدينة الغافية على ضفاف الفرات ....

لم تكن غافية تلك الليلة، مغمضة العينين فقط !.

وهل ينام من به ألم ؟!

لم تعد ضفاف الفرات تزدان باشجار الغرب والصفصاف،غرقت تلك الرمال التي كان يسهر عليها الشباب مع ضوء القمر ورائحة الشواء تفوح مع الدخان المتصاعد من (سكف) سمك الكطان. ذهبت الليالي الملاح وغاب معها لحن (المطبك)، لم تعد أنامل (أبو زيدان) تداعبه لتخرج أنغاماً تذوب بالروح مع ضربات (بدر الياس) على الطبل وصوت (عبد القادر عيفان) ينساب شجياً مع انسياب الفرات من خلال شط (قليع).

يَـم مريش عمريلي النركيلة كلبي ذاب ع السمرة الطويلة

أما همسات العشاق فلم تعد تذوب مع صوت سعدي الحديثي:

شـفـتـه بـالحَـطَـب يلكط خـديـدو مـن الـعـرق ينكط
فَـرخ الـبـوم صـادو القط كـسر ضـلـعَـهْ وجـنـحـانَـهْ

حتى النواعير، تلك الايقونة الحديثية بامتياز، هجرت أماكنها، لم يعد أنينها يعلل الساهرين ... يهدهد المغرمين.

من يعيد الى ليالي حديثة ترانيم نواعيرها؟؟

يا ابـو جـرد ناعور .... أحـو !!

جـــــــــــردك ديـــــــــــره

مثل الرمد بالعين ..... أحو !!

عـــــشـــــق الـــــصـــــغـــــيرة

ليل ثقيل خيم على المستشفى العام في حديثة تلك الليلة، المرضى القليلون في الردهات يتبادلون الأنين وأوجاع المرض، ثلاثة من المعاونين الطبيين كانوا خافرين، يتجمعون في غرفة الطوارئ ويتبادلون الأحاديث،الجو كان بارداً في الخارج فليالي تشرين الثاني من ذلك العام تحمل نذر شتاء بارد يطرق أبواب المدينة.

منذ صباح ذلك اليوم والقوات الامريكية تفرض حضراً شاملاً للتجوال في المدينة، أرتال العجلات الأمريكية تجوب الشوارع، أصوات الإنفجارات وإطلاق الرصاص يثير القلق والتوتر في كل مكان، المدينة تبدو كأنها مدينة أشباح، شوارع خالية وأسواق مهجورة.

بعد منتصف الليل، مزقت السكون ضوضاء غير مفهومة، حركة سيارات، صرير الباب الخلفي للمستشفى، حركة غريبة لأناس يركضون وعبارات مستفزة بلغة اجنبية.

دخل أحد حراس المستشفى مسرعا الى غرفة الطوارئ:

- الجنود الأمريكان دخلوا المستشفى من الباب الخلفي، يطلبونكم لأمر مستعجل.

كان عدد الأطباء المقيمين قليلاً في مستشفى حديثة بسبب صعوبة الوضع الأمني وتعقيده، لذلك تبقى المستشفى أحيانا دون طبيب خافر، ويقوم الكادر التمريضي بعلاج الحالات البسيطة واستدعاء الأطباء عند الحاجة. في تلك الليلة لم يستطع الطبيب الوصول بسبب الرعب الذي خيم على المدينة، وحضر التجوال الشامل الذي فرضته القوات الأمريكية، حتى سيارة الإسعاف لم تكن تخرج إلا بموافقة القوات الأمريكية لكل مرة وبعد تزويدهم بمعلومات تفصيلية عن السائق ومن معه من الكوادر الطبية.

خرج المعاون الطبي جميل مسرعاً بإتجاه الباب الخلفي، كان متلهفاً لمعرفة ما يريده الأمريكان، خمن انهم قد يبحثون عن رجل يرقد في المستشفى او ربما يريدون معرفة فيما اذا جاء جريح للعلاج.

اجتاز الممر المؤدي لردهات المرضى الراقدين، ثم خرج من الباب القريب من ردهة الولادة متجهاً الى الباب الخلفي.

كان الجنود الامريكان ينتشرون هناك، كل جندي وقف في جهة والجميع متأهبين، اثنان منهم يقفان قرب عجلتين عسكريتين كانتا واقفتين قرب قاعة الطب العدلي، عرف انهما قائد المجموعة والمترجم. تقدم نحوهما فخاطبه المترجم قائلاً:

(هؤلاء إرهابيون قتلى في هذه العجلة، أما تلك ففيها مدنيون قتلوا خلال المعارك مع الارهابيين. إنزلوهم بسرعة!.)

نظر جميل الى العجلتين العسكريتين فرأى في حوضيهما أكياس نايلون كبيرة، تلك التي يضع الجنود الأمريكان فيها جثث الموتى، مرمية في حوضيهما.

بدأ جميل وإثنان من العاملين في الحراسة بنقل الجثث الى داخل (ثلاجة الموتى)، لم يكن من السهل عليهم نقل هذا العدد من الجثث، كانوا يرتجفون من هول الموقف، أحد الحراس لم يستطع الاستمرار وبدأ يتقيأ، استمر جميل والحارس الآخر الى ان أكملا نقل جميع الأكياس الى القاعة.

غادر الجنود الأمريكان المستشفى مسرعين فيما بدأ المعاون الطبي جميل بفحص الجثث فحصاً أولياً. واحد وعشرون كيساً تحوي جثث عراقيين بملابس مدنية، لم يعرفوا أسماء القتلى، جميل خمن انهم من اهالي حديثة.

أربعة عشر رجلا، أحدهم كبير قارب السبعين من عمره، وأربع نساء وستة أطفال. أجسام محروقة، أطراف مقطعة، أحشاء مبعثرة، ملابس مقطعة ملطخة بالدماء . مجزرة بشعة، استهانه شنيعة بحرمة النفس البشرية صدم الجميع، وشرع معضمهم بالبكاء.

2

تذكرت تلك الليلة المرعبة وانا اجتاز بوابة الباب الخلفي للمستشفى، نظرت يمين المدخل حيث ثلاجة الموتى، صامتة حزينة، يتسرب منها

عطر المظلومين. ابطأت سيري، اوقفت سيارتي في المرآب واتجهت الى الردهات، العديد من صور الألم والفقدان مرت بخيالي، وانا في طريقي الى ردهة الجراحة حيث يرقد عبد الرحمن منذ ثلاثة أيام.

ردهة الإنعاش كان فيها آلام واحزان، زائر الليل كان يتردد عليها كثيراً.

قبل هذا الزمان .....

كان الموت زائراً وقوراً يزور دونما ضجة، لم يكن بهذه الوحشية المفجعة .

لا زالت عالقة في ذهني تلك التراجيديا الحزينة عندما استقبل والدي الموت مستسلماً. بدأ يضيق عليه نفسه، وجسمه أخذ بالتراخي. وضعت وسادة خلف ظهره ثم اخرى، حاولت جعل صدره يرتفع باستقامة، لكن جسده استمر ينزلق على السرير وقواه بدأت تخور. قال لي الدكتور:

- الماء بدأ يملأ صدره، وقلبه أصبح عاجزاً عن إتمام مهامه.

كانت الأزمة القلبية قوية فأتلفت جزءاً كبيراً من عضلة قلبه، والتدخين كان قد نال من رئتيه. رفع سبابته ونظر اليَ، سكنت حركته وتوقف نفسه. مددت كفي فاغمضت عينيه.

قبل ذلك اليوم كان الموت الفردي يطوف في خيالي.

ما الذي حدث لهذه المدينة حتى تحول موتها جماعياً هكذا؟ ما الذي جرى لأهلها؟

خلال الحروب، كان الموت يأتي الينا باسماء أقل وطأة، بطقوس أكثر إحتفالية وفخر، يصل الشهيد الى ذويه محمولاً على سيارة تاكسي، ملفوفاً بعلم وطنه، يستقبله كل سكان المدينة، يبكون شبابه بحزن يخلطه الفخر ما يقلل من وطأة الفقد، حتى الذين يفقدون في المعارك يبقى أهلهم وذووهم يحلمون بعودتهم يوما ما، رغم انهم يعرفون ان ذلك اليوم قد لا يأتي.

بعد انتهاء معارك عبادان خلال الحرب العراقية الايرانية، كنت قلقا على أخي الذي كان جنديا في الخطوط الأمامية هناك. والدتي كانت تجلس على عتبة دارنا حتى مغيب الشمس، لعل سيارة تقف وينزل منها ابنها، هي تعرف ان إجازته الشهرية فات أوانها وبات القلق لا يفارقها، أخذتها وذهبت الى بغداد أتقصى أخباره من زميل له في نفس وحدته العسكرية كان يسكن هناك، علمت منه ان معارك شرسة دارت هناك وشاركت بها وحدتهم العسكرية الا ان القوات الايرانية المهاجمة اقتحمت الخطوط الامامية، ولم يعد عدنان منذ تلك الليلة وقيد في سجلات وحدتهم مفقوداً. أخذت والدتي وعدنا الى حديثة، لم اطلعها على ما علمته حتى وصلت حديثة فالحزن لا يليق الا فيها ولا هيبة للموت إلا في مقابرها ودواوين أهلها.

قال لي عمي حينها:

- دعنا نذهب الى البصرة، لنكون قريبين من المقرات الخلفية للوحدة العسكرية، ربما نحصل على أخبار (زينة)، قد يكون أسيراً.

ذهبنا الى البصرة، فوجدنا الموت يجتاح الشوارع، يتنقل مع الجنود في المطاعم والمقاهي، يتبضع مع الناس في شارع الكويت، حتى إنه ركب معنا في العبارة عندما عبرنا شط العرب الى التنومة.

أي حزن ذلك الذي خيم على هذه البلاد عبر تاريخها. الأيام تأتي اليها قاسية، لا تختلف عن سابقاتها الا بعدد الموتى.

ما الذي تغير فينا الآن؟

ما الذي حدث بعد الغزو الأجنبي لبلادنا؟

أصبح الموت يتنفس معنا! يأكل ويشرب معنا!، يداهمنا جميعا كل حين.

الخوف والقلق ينام في اسرتنا... يزعج أطفالنا ... بدأوا يهبون من النوم منذ الفجر.

أصبح الناس يموتون قبل أوانهم! ..... يموتون بطرق مفجعة!.... لم يكن أحد يتصور إنهم سيموتون بها!.

3

عبد الرحمن، هذا اليتيم، الذي جئت لأزوره في المستشفى، كان أحد الناجين بأعجوبة من مجزرة القوات الأمريكية في ذلك الصباح

الخريفي الرهيب في حديثة. أصبح شاباً، يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاما، نحيف شاحب ساهم النظرات، عيناه زرقاوان، صافيتان، بريئتان، كأنهما عينا طفل صغير، لكنهما خائفتان قلقتان . كان طفلاً صغيراً، لا زال يركض بسنواته الثمان عندما قتل الجنود الأمريكان كل عائلته أمامه، لم يكن يدرك ما الموت حينها.

يوماً ما، كنت أسير مع صديق عراقي في شوارع فاستروس، كان صديقي قد أمضى شهرين في السويد بعيدا عن أطفاله وزوجته. المعارك كانت محتدمة حينها خلال الحرب العراقية الايرانية، وكان صديقي يفتقد أبناءه ويشتاق أليهم كثيرا. ظهرت أمامنا سيدة مع طفلها الصغير الذي يسير الى جنبها. أراد عماد أن يداعب الطفل،فخاف وبكى.

جن جنون المرأة وفقدت أعصابها:

– متوحشون !! رعاع!! متخلفون ، لماذا تخيف إبني؟ لماذا ترعبه؟ هل أنت مجنون؟

لم يكن تصرف عماد مناسباً، لكن يا ترى ماهو رأي تلك السيدة بالجندي الأمريكي الذي أطلق الرصاص على تلك العائلة المنكوبة ليهطل وابل الموت على أطفالها ونسائها؟ ما هو رأيها بالرقيب الذي كان يصدر الأوامر ويقود تلك المجموعة؟ وما هو رأيها ببقية فرقة الاعدامات وهم يطلقون الرصاص أمام أطفال صغار، يقتلون أباءهم وأمهاتهم، هل هم متخلفون ورعاع ومتوحشون ؟

في البلدان التي ينتهكها الغزاة، ليس التعساء من يموتون بالحروب والمعارك، إنما التعساء هم اليتامى والثكالى الذين يعيشون الموت وهم أحياء. من يعش يتيما يعِ ذلك كل يوم، فالجوع الى الحنان شعور مخيف يظل يرافق الشخص الى ان يقضي عليه، عاش عبد الرحمن مع اختين يتيمتين ومقبرة كاملة من الشهداء من أهله وأقاربه.

4

في هذه المدينة، حتى في الافراح، الحزن له بصمة، فالحزن على الموتى لا يغيب حتى في أيام الأعياد والمسرات، له طقوس ومواسم، حتى مكان الاحتفالات يختارونها قرب المقابر والأضرحة.

يبدأون اليوم الأول من أعيادهم الدينية منذ الفجر، الرجال يذهبون الى المسجد لصلاة العيد، أما النساء، فرغم ان الناس يطلقون على اليوم الأول (أيامك سعيدة) الا انهن يذهبن الى المقبرة منذ الفجر، يضعن البخور قرب مقابر موتاهن ويجلسن (يعددن) ويذرفن الدموع، دموعاً بحجم الغائبين، ثم يوزعن (الكليجة) للفقراء والمساكين ويعدن الى منازلهن.

بعد تناول الإفطار يودع الناس خلفهم الحزن ويذهبون لتبادل الزيارات مع الجيران والأقارب والأصدقاء، يتناولون الشربت والكليجة والجكليت، وكل يتمنى الخير والسعادة لصاحبه قائلاً له :

(أيامك سعيدة ... كل عام وانت بخير)

في صبيحة اليوم الثاني من أيام العيد، يستيقظ أهالي حديثة مبكرين إستعداداً للزحف والتبرك بزيارة ضريح الشيخ حديد، الذي يقع شمال حديثة ببضعة كيلومترات، على الجانب الغربي من نهر الفرات، جنب الطريق المتجه شمالا نحو سوريا . وما أن يحل الضحى من النهار حتى تكتظ الفسحة أمام الضريح ويزدحم الزوار على باب القبة التي تضم قبره وقبري ولديه. ونظراً لخصوصية هذه الزيارة في عيدي الفطر والأضحى وكثرة الزائرين وضيق الفضاء حول الضريح لذا استدعى الأمر السلطات، تجنيد ما أمكنها من قوى الأمن لتأمين سير الأنشطة الإجتماعية حتى نهاية الزيارة .

يكون تجمع النساء حول الضريح مباشرة وبشكل خاص أمام الباب المفضي الى حيث القبور الثلاثة، وتتفاوت صور الأنشطة التي تؤدى وفاءً وتكريماً من توزيع الحلوى والكليجة وربما النقود وسط الهلاهل إعرابا عن الشكر لصاحب الضريح وإستحقاقه للنذور التي حان الوفاء بها هذا اليوم المبارك.

وفي باحة الغرفة الملاصقة للمرقد من جهته الشرقية تجتمع النساء بكامل زينتهن يؤدين الرقصات وسط الهلاهل إعرابا عن الإمتنان والفرح الغامر .

اما الرجال فيقومون بترديد العبارات حول قدسية هذا اليوم وبركات صاحب الضريح وإستجابته الأكيدة لكل من يندبه من المظلومين، وبعد

حضورهم أمام باب الضريح وقراءة ما يحسنون أداءه من آيات قرآنية وأدعية دينية وترديد هوسات موزونة هي بالتأكيد من قبيل النذور .

وحال فراغهم من ذلك يتوجهون الى الوادي أسفل الضريح من جهته الغربية في بقعة مناسبة لأداء نشاط متميز بين أنشطة هذا اليوم وهو رقص (الجوبي).

فينبري رجل ذو مكانة إجتماعية بدعوة الآخرين للبدء بأداء ما يستحقه هذا اليوم المقدس، وسرعان ما يخف الرجال لينتظموا في دائرة غير مغلقة، متشابكي الأيدي ويبدأ الغناء على المزمار أو على وقع الطبل يصاحبه لون مناسب من الاغاني .

وتتميز هذه الرقصة بانضباطها العالي ضمانا لحسن الأداء، ما يقتضي وجود مشرف وسط دائرة المشاركين يراقب الحركات ويشجع الرجال على حسن الأداء وعدم الإخلال بكل حركة منه.

وأبرز من كان يتصدى لهذا الواجب المرحوم عبد الجبار الصلبي الذي يتوسط الدائرة لمراقبة العملية وتشجيع الرجال ودعوة المتفرجين من حول الجوبي مستفزاً لهم بالقول: (أنتم مو زلم ؟! ... تعالوا؟! هذا يوم الحديثة ولن يعود الا بعد سنة!.)

ولا تتردد شقيقته أن تنزل الى جانبه وسط الدائرة، تراقصه بالسيف أو بتلويحها بأردانها، ترسلها فوق رأسها ورأسه، فتتعالى زغاريد وهلاهل النسوة بالتنسيق مع قفزات الراقصين وصوت المغني:

(كل الهلا بحبَيبي الجان زعَلان

طابك وردة وخزامة وبالوسطْ عران

كل الهلا بالحادَث لو جَن كلهن

ريحة مسج وخضيرة بطَي كذلهن

ماكلتلك يا يمه خذيلي منهن

بلكت ربك يغفرلك صومة رمضان)

وهذا الدور ليس خاصا بأبي زرنان فهناك المرحوم عيفان الظاهر وولده قدوري وجاسم الباقي وأحمد المكيطف.

وأخص بالذكر المرحومين رزيك محمد العبيد وإسماعيل الوهيب الأحمد شاووش، وذلك لتميزهما في قيادة الجوبي والحماس الذي يميز الذروة (شَيِّل شَيِّل) إذ يترك دائرة الراقصين بقفزات رشيقة، موزونة، ليؤدي دوره وسط الدائرة على نفحات المزمار المناسبة، ما يزيد من حماس الدائرة حوله ، أمر يستدعي مواصلة هذه الوصلة على شدتها الى أن تضج النسوة بالهلاهل، وربما إندفع أحد أفراد الشرطة الى إطلاق النار مكافأة لهؤلاء الرجال.

اما الشرطة، فلا يقتصر دورهم على مرافقة الوفود القادمة وحمايتهم حتى العودة من الزيارة، فهم أيضا يقومون بدور لا مثيل له في هذه المناسبة، إذ ينبري إثنان منهم في مطاردة لا نظير لها في فضاء مجاور

للوادي من جهته الغربية وسط الهلاهل والرمي أحيانا، لروعة المشهد من سرعة عدو الخيل ومهارة الفرسان .

خلال الزيارة يقوم عدد من الرجال ببيع الحلاوة وبعض المفرقعات (الطَرقَات) ولا أنسى ذلك الرجل العجوز، كليل البصر، المدعو هويدي الحمودي الشمري، المعروف بهويدي الأعمى، يحمل صفيحة من (حلاوة راشي)، نقف صفا أمامه، ننقده ما نملك من قروش مقابل قليل جداً من حلاوته، وكنا نضج بالإلحاح طلبا للمزيد دون جدوى .

وفي مراحل لاحقة، زادت رقعة السوق في هذه المناسبة، فقد حل بها العديد من ذراري المرحوم ضايع، يبيعون مختلف البضائع التي تناسب ذاك اليوم، ولاحقاً إنضم اليهم المرحوم صباح مصطفى ببضاعة مختلفة وجذابة من مفرقعات ونفاخات وما شاكلها وسط نداءات وشعارات مسموعة من مسافات.

وما ان يحل الظهر حتى نحس بالحسرة على السرعة التي إنقضى بها هذا اليوم وننظر بحزن الى الجموع المدبرة وما هي إلا لحظات وإذا بالساحة خالية كأنها لم تكن تعج بالزائرين قبل قليل.

وغالبا ما يستمر الرجال بالهوسات والسامري وهم عائدون الى حديثة.

هبت هبوب الشمال وبردها شيني

ما تدفي النار اليا حنا شعلناها

علامج ما تذرفين الدمع يا عيني
على هنوف جديد اللبس يزهاها

وقد تتحول هوساتهم الى هوسات وطنية وسياسية، والحديثيون سياسيون بالفطرة ويحملون هموم الوطن، ولا زلت اذكر اليوم الذي وقف فيه طاهر يحي رئيس وزراء العراق على باب مكتبة حديثة العامة موجها كلامه لأهالي حديثة:

(اقلم اظفاركم .اذا لم تتركوا السياسة وتقدموا فروض الطاعة للحكومة).

5

لم يعد د وليد خالد بيننا وهو الذي كان مديرا لمستشفى حديثة، فقد انتقل للعمل في مستشفيات مدينة كركوك بعد أن تخصص في طب المفاصل، لكن ذاكرته لم تنس تلك الايام .

في صبيحة يوم 19 تشرين الثاني 2005، توجه د وليد كعادته الى المستشفى،التي ظلت تعمل رغم الإرباك الكبير الذي حصل بعد دخول القوات الامريكية الى المدينة وبدء عمليات المقاومة ضدها ورد الفعل العنيف من قبل هذه القوات، التي يروح ضحيتها الكثير من المدنيين الأبرياء في اغلب الاحيان .

خرج مشيا على الاقـدام ولم يستخدم سيارته، لأن السياقة، وخصوصا في بداية النهار، فيها نوع من المخاطرة، اذ ينتشر الأمريكان

أما بين البيوت أو على سطوحها، أو في أماكن لاتثير إنتباه أحد، وقد يطلقون النار على المارين اذا اقتربوا منهم. فكيف اذا كان يوما متوترا مثل ذلك اليوم حيث سمع دوي إنفجار عنيف في الصباح في مكان ما من المدينة، أعقبه إطلاق رصاص كثيف.

في الشهور الاخيرة، ومع ازدياد أعمال المقاومة في المدينة، كانت تزداد معها أساليب القسوة والعنف والقتل بدم بارد، وهي الأساليب التي كانت تستخدمها قوات الإحتلال مع المدنيين العراقيين الذين كانوا يعانون الأمرين.

كان أهالي المدينة يقضون ليلهم في قلق وخوف من التفتيش والتحقيق والقتل، حيث ان القوات الامريكية بدأت تنصب الكمائن وتراقب الشوارع والبيوت وينام أفرادها على أسطح المنازل وقد يحجزون ساكني البيوت في غرفة واحدة ويجلسون هم بالمطبخ يتناولون الطعام ويشربون الشاي.

تعود الناس ان يسمعوا لعلعة الرصاص وأصوات الإنفجارات كلما مرَّ رتل من القوات الأمريكية واصطدم مع كمين للمقاومة يقف في مكان ما ينتظر هذا الرتل لتفجير لغم أرضي عليه، فتحدث معركة شرسة تستخدم فيها كل أنواع الأسلحة ويتعرض فيها المدنيون المارون في الشارع أو الساكنون في الدور القريبة الى خطر الموت بطلقات طائشة أو متعمدة، والذي يسلم من الموت أو الإصابة بجروح قد لا يسلم من الإعتقال .

عندما يحدث إنفجار أو مصادمات، غالبا ما تسمع سيارات الشرطة وهي تعلن بصوتٍ عالٍ عبر مكبرات الصوت عن حضرٍ شاملٍ لحركة المدنيين سواء بالسيارات أو السير وعليهم البقاء داخل منازلهم، ومن يخرج يعرض نفسه لإطلاق الرصاص، يعقب ذلك حملة مداهمات وتفتيش. ويتكرر بين الفينة والآخرى الإعلان عن حضر التجوال الشامل لإجراء حملات تفتيش عن السلاح في المنازل، غير ان سيارات الشرطة التي تعلن حضر التجوال عادة ما تسير في الشوارع الرئيسية فقط، لذلك فان هذا الإعلان قد لا يسمعه أغلب الناس، خاصة وانه لا تتوفر في المدينة وسائل الإتصالات الهاتفية، سواء تلك الارضية أو الجوالة، فالبدالات وأبراج الاتصالات دمرت خلال القصف عند احتلال العراق، أو فجرت بعد ذلك من قبل جهات عديدة. أما استخدام الإنترنت في المنازل فغير متوفر، ويحدد ذلك في مقاهٍ خاصة للإنترنت، وتفرض عليها رقابة مشددة، وأي مخالف يعرض نفسه للقتل بتهمة التعاون مع المحتلين.

وسائل الإتصال القليلة المتوفرة التي يسمح باستخدامها لمسؤولي الدوائر ومواقع الطوارئ هو ما يعرف بتلفون سيناو، الذي يوفر الإتصال بين موقعين فقط، أما من يرغب الإتصال من حديثة الى مدينة آخرى فيستخدم تلفون الثريا المتوفرفي مكاتب أهلية مراقبة.

كان د. وليد في أغلب الأحيان يسلك الطريق الذي يقابل المستشفى مباشرة بعد أن يخرج من باب بيته الخلفي، المقابل لمجمع خالد

الداهري حاليا، ومن الفرع الصغير الى الشارع المقابل للمستشفى، لكنه هذه المرة سلك الطريق النازل من القائمقامية والمقابل لباب المقبرة خروجا من الفرع المحاذي لجامع نجم الدين، وعندما وصل نهاية الشارع واصبح مقابلا لباب المقبرة الرئيسية في المدينة اتجه يساراً قاصداً المستشفى.

طيلة الفترة التي أمضاها في سيره كان يسمع فيها أصوات إطلاقات بعيدة أثارت قلقه وخوفه من ان اليوم لن يمر بسلام .

سار قليلا باتجاه المستشفى مجتازا صف المحال التجارية على اليسار، وقبل أن يصل الى المستشفى، التي لا تستغرق أكثر من خمس دقائق سيرا، بدأ اطلاق نار كثيف لم يعرف مصدره أو إتجاهه، سمع أزيز الرصاص قريبا جداً، كان يصطدم باعمدة الكهرباء وأسلاكها. ورغم ان المستشفى أصبحت أمامه وهو في طريقه اليها الا أنه لم يستطع الوصول، فالتجأ الى منزل صديقه الذي كان بيته في فرع جانبي، ولجأ معه بعض الموظفين الذين كانوا في طريقهم للدوام مثله.

لم يستطع د. وليد أن يخرج من منزل صديقه، فتناول الغداء معه وبقي حتى العصر، ولما لم تظهر له بوادر تحسن الأمن في المدينة، خرج سالكا طرقا فرعية بين البيوت للعودة الى منزله. صرخ به جندي أمريكي كان متخذا من أحد المنازل موقعا لقنص كل من يحاول ان يخرج الى الشارع. غير ان د. وليد تكلم معه باللغة الانكليزية واخبره

بانه مدير مستشفى حديثة، وهو عائد الى منزله، سمح له بالمرور، فسار مسرعا باتجاه البيت، وبذلك لم يستطع مدير المستشفى الوصول اليها لمتابعة المخاطر الصحية التي تحيق بالمدنيين في مثل تلك الظروف.

6

في حي بني حارث، ضمن المنازل البعيدة على طرف الحي، يسكن جميل. رجل ضخم الجسم ذو بشرة بيضاء وشعر مسدل. قرب منزله محل صغير يستخدمه كعيادة مسائية صغيرة للتضميد وزرق الابر وبيع الأدوية. بعد دوامه في المستشفى يجلس المعاون الطبي جميل في عيادته خلف منضدة صغيرة عليها جهاز لقياس الضغط وبعض الأدوات الاخرى للفحص الطبي ويبدأ بفحص ومعالجة المرضى الذين يسكنون ضمن الحي.

قبل مغيب نهار ذلك اليوم اقفل جميل عيادته وذهب بسيارته الخاصة قاصداً المستشفى رغم حضر التجوال المفروض منذ الصباح. مر في طريقه قريبا من بيت د وليد، فوجده يهمُ بدخول البيت، فبادره قائلاً:

– اذا لم يكن في المستشفى خافر فيمكنك ان تعتمد علي، انني مستعد للبقاء في المستشفى.

– حسنا إبق فيها الليلة لمساعدة المرضى والجرحى لان المستشفى دون كادر طبي ولم يستطع احد من الوصول الى المستشفى.

جازف جميل بحياته وذهب الى المستشفى وبقي خافرا تلك الليلة.

قبل مغيب الشمس جاء رجل جريح الى المستشفى بواسطة سيارة مدنية. كان الجريح مصابا باطلاق ناري في جنبه، فتح جميل ضماده، نظفه، وعمل العلاجات اللازمة له واعاد الضماد.

اتصل جميل بمدير المستشفى بواسطة هاتف السيناو وأخبره ان رجلا مصاب بطلق ناري، دخل المستشفى وتم معالجته وان الرجل الجريح يدعي ان الجنود الأمريكان اطلقوا عليه النار قرب منزله في الحي العسكري وان هناك عدداً من المدنيين، قتلتهم القوات الامريكية، لا زالوا في منازلهم وان القوات الأمريكية تطوق المنطقة.

7

في الصباح الباكر من اليوم التالي، بدأ الناس يتقاطرون الى مستشفى حديثة. تسرب خبر وصول قتلى مدنيين، قتلوا من قبل قوات المارينز الأمريكية. كثيرون من الذين وصلوا لم يسمعوا بالحادث، لا يعرفون من هم القتلى؟ وما اسماءهم؟. تعرفوا عليهم بعد أن شاهدوا الجثث!!. أحدهم ،بعد ان اطلع على حجم المأساة، خرج مذهولا عصبياً الى الشارع الجانبي المحاذي للمستشفى، رأى أحد العاملين في مديرية توزيع الكهرباء القريبة من المستشفى فصاح به:

- لماذا تقف هنا؟ ادخل الى المستشفى؟ أخويك خالد ووجدي مع الشهداء.

صدم الرجل وأخذ يبكي بحرقة وهرول الى المستشفى!

بعض ذوي الضحايا واقاربهم وجيرانهم كانوا اول الواصلين الى المستشفى. سلام سلمان ذهب الى المستشفى راكضاً، كثيرون مثله كانوا يركضون، الجميع كان في ذهول، في منتصف الطريق وقفت قربه سيارة بيكب لأحد معارفه، فركب معه.

دخل مسرعا الى المستشفى. أخبروه ان الجثث في ثلاجة الموتى لشعبة الطب العدلي قرب الباب الخلفي. دخل الى القاعة الصغيرة ، أكياس كثيرة مرمية في الارضية دون ترتيب، كثيرون حوله يصرخون، كأنه يوم المحشر، صراخ وعويل وأصوات من جميع الجهات، موقف حزين لن ينساه. كان يعتقد ان الإنسان قيمة عليا لأخيه الآخر، تهاوت أمامه القيم واشمأزت نفسه مما يفعله الإنسان بأخيه الإنسان.

تقدم وبدأ يفتح الأكياس، كان يفتح واحدا بعد الآخر وذوو القتلى والحاضرون يتعرفون عليهم. البعض يبحثون عن أولادهم فلذات أكبادهم وآخرون يبحثون عن أخوتهم وآخرون يبحثون عن أقاربهم أو جيرانهم أو اصدقائهم.

كان يعرف انه سيجد شقيقته في أحد الأكياس وسيجد أبناءها وزوجها في أكياس أخر وسيجد أقاربه وأبناء عمومته. أحد الأكياس وجد فيه ثلاثة أطفال صغار، عرفهم إنهم زينب وعائشة وسبأ، كيس آخر وجد فيه طفلين صغيرين إنهم عبدالله ومحمد. كل من يتعرف على من

يبحث عنه يستلمه ويحمله الى خارج المستشفى. أحد الشبان تعرف على جاره فأخذه، أحدهم وجد إبنه، فحمله. مآس لا تصدق ولا تخطر على بال، إحدى الجثث كانت محروقة ومتفحمة، لم يعرف الحاضون لمن تعود، ولكن عندما تعرف الجميع على ذويهم بقي وليد بدون جثة، فعرف ذووه إنها له. استلموا الجثث جميعا، لكن (سلام) واقاربه لم يجدوا إثنين من الأطفال، انهما الطفلان إيمان وعبد الرحمن، يا ترى ماذا جرى لهما؟

الفصل الثاني

ذات صباح في حديثة

هناك مدن لا تختار قدرها....

فقد حكم عليها التاريخ، كما حكمت عليها

الجغرافية ألا تستسلم...

احلام مستغانمي

1

نحن الآن في فصل الخريف .....

الفصل المظلوم عند الكثيرين، الذين لا يرون فيه الا اللون الأصفر، لا يسمعون سوى أنين الأشجار والأوراق، لا يرون فيه الا النهايات وحشرجات الموت، ويتناسون الحلة الجديدة التي ترتديها الطبيعة فيه، ويتغير ايقاعها، فالخريف تجديد للحياة وليس نهاية لها، أيها الخريف ... لا تغضب لظلم الكثيرين، فهم متعودون على نكران الجميل.

انا أحب الخريف كما احب الربيع، أشعر به كمحطة استراحة بعد اجتيازي الصيف اللاهب بصعوبة، الكثير من التحفيز والشحن فيه، انه موسم التبديل والتغيير.

في الصباح تمر افواج التلاميذ وهم منتشون في عامهم الجديد، ملابسهم جديدة، كتبهم جديدة، يذهبون الى صفوف دراسية جديدة. الفلاحون مستمتعون بالراحة بعد ان أكملوا الحصاد واستخلاص الحبوب وانتهوا من موسم زراعة الخضراوات الصيفية.

أسراب الطيور المهاجرة تحلق في كبد السماء، فيما تتنقل الطيور الصغيرة مختلفة الألوان تجوب أعالي النخيل، تلتمس مواطن الرطب، يلاحقها الصبية ب(مفاقيسهم) لصيدها والتمتع بوجبة عشاء نادرة .

بساتين النخيل في عرس حقيقي،انه موسم جني التمور (الكصاص)، كل العوائل، رجالا، نساءا وأطفالا يشاركون في هذا المهرجان الجميل، يلقطون التمور من تحت النخيل، يعبئونها في أكياس فيما يتنقل (الكاصوص) من نخلة الى اخرى بخفة ورشاقة، يقطع (عذوق) التمر ويرميها الى الأرض.

هو موسم بدء الزراعة الديمية أيضا، يخرج الرجال الى الصحراء، يبذرون الحنطة في الهضاب والسهول في انتظار موسم الأمطار، يراقبون السماء كل يوم بانتظار الغيوم التي عادة ما تبدأ بالظهور على استحياء.

العوائل منهمكة بخزن مؤونة الشتاء، كل بيت يخزن ما يحتاجه من تمر الخستاوي، التمر الزهدي لا سيما الخاص بعمل الحلويات (المدكوكة)، أكياس السمسم وما تحتاجه العائلة من الماش والعدس.

كم هو رائع (بوشكين) الشاعر الروسي العظيم الذي قال وهو على فراشه ومشهد الخريف يطل عليه من نافذته المفتوحة:

((أيها الخريف أي غرابة فيك تجعلك تشبهني بحزنك، كما كنت تشبهني بيوم فرحي))...

الأمسيات هي الأخرى جميلة، والتعاليل الليلية ممتعة، والدواوين تزخر بروادها. في الليالي كنا نتجمع في ديوان أركان الهاشمي، رجال عديدون تتنوع احاديثهم بما يجري بالمدينة وببلدهم، جدلهم تمحور

حول أمور المعيشة والمجتمع وجديد السياسة، الا ان اعوام الاحتلال كانت مختلفة، الأحاديث السياسية هي الطاغية كل ليلة.

أما ليالي هذا الخريف .... خريف عام 2005 م فكان الحديث الأهم عن الدستور، خاصة بعد ان اجري استفتاء عليه في الخامس عشر من تشرين الاول، ذلك الاستفتاء الذي كشف عن خلاف قوي مستحكم ساد أطياف المجتمع العراقي، ورغم انه حصل على نسبة عالية من القبول في محافظات عراقية عديدة الا ان محافظة الانبار، التي غالبيتها الساحقة من الطائفة السنية والتي مدينة حديثة جزء منها، رفضته رفضا قاطعاً.

في احدى الليالي الخريفية تلك، كان رواد الديوان يتجادلون بجد وبصوت مرتفع :

- انه دستور امريكي، تكمن فيه ألغام ومطبات، ستنفجر علينا يوما ما كما خطط ذلك اعدائنا، سيكون هذا الدستور الطريق الشرعي لتمزيق العراق وتقسيمه.

قال ذلك احد المعارضين المتحمسين لرفضه، متذرعا بان اي دستور يشرع تحت سلطة الاحتلال، سيكون ضد مصلحة العراق .

- ما هذا الشعور الطاغي بالمؤامرة؟ ألم يحز على موافقة العراقيين! كما جاءت نتيجة الإستفتاء، كما انه كتب من قبل لجنة من العراقيين انفسهم!!

تصدى احدهم بتلك الاجابة وهو يهيء نفسه لتلقي سيل من التهكم من الكثيرين .

– ها ها ها.... واين هم العراقيون؟ انهم في المطارات ومخيمات الغربة أو قابعون في منازلهم، أما الآخرون فيمثلون أجندات الآخرين، هدفهم استغلال الفرصة ليسرقوا البلد ويفرهدوه.

الأراء مختلفة وكل يتكلم من وجهة نظره فقط، اما اين تكمن المصلحة العامة؟ فكل شخص يجزم ان رأيه هو الرأي الوطني! .

ويستمر الجدال.

رفع محمد يده وطلب الإنصات له .

– دعكم من الدستور الآن، فقد اقر وفرض كما يريدون وانتهى الامر، ماذا سمعتم عن قوات المارنز التي وصلت حديثة تواً، يقولون انها تدعى الفرقة القذرة، جنودها لا يترددون في القتل لاتفه الأسباب!

كانت وحدة من قوات المارينز قد وصلت الى القاعدة الامريكية قرب حديثة قبل ايام، هذه الوحدة هي إحدى وحدات الفيلق الثالث، المعروف بتاريخه الحافل بالأعمال الوحشية التي يندى لها الجبين منذ مشاركته في حرب فيتنام والحرب الكورية. هذا الفيلق اشتهر بقسوته التي بفضلها حاز على الكثير من الأوسمة.

- وهل هناك وحدات رحيمة في قوات الاحتلال الأمريكي ؟ الم يتركوا جثث جنودنا القتلى بعد احتلالهم سد حديثة اسبوعا كاملا للكلاب تنهش بها ؟ انهم محتلون غزاة وهذا هو ديدن الغزاة.

قال ذلك اسماعيل بعصبية فيما كان الآخرون واجمين صامتين.

لا احد هنا يعتبر الأمريكان محررين كما يطلق عليهم ذلك بعض السياسيين، معظم الناس كانوا يعانون من الوضع الاقتصادي المتردي سابقا، وعانى الكثيرون من ويلات الحروب ونتائجها ويحلمون بأوضاع اقتصادية جيدة وامن وسلام، كثيرون ينشدون التغيير نحو اوضاع انسانية واقتصادية وحريات شخصية احسن مثل الدول الاخرى، خاصة ان العراق بلد نفطي ويملك احتياطيا وفيرا جدا، رغم ذلك فلم يكن احد سعيدا برؤية الجنود الأمريكان يجوبون الشوارع وهم يوجهون بنادقهم الى صدور المدنيين ويداهمون المنازل وينتهكون حرمتها، بل كان ذلك مبعثاً للذل والمهانة.

استمر اسماعيل بكلامه :

- الم تقرؤا عن جرائمهم في فيتنام ؟ هل سمعتم بمجزرة ماي لاي الفيتنامية ؟

- قصها لنا يا اسماعيل ! لا نعرف تفاصيلها.

استعدل اسماعيل في جلسته واستمر في حديثه:

- خلال الحرب الفيتنامية وبعد مقتل عريف وجرح آخرين من الجنود الأمريكان، توصلت الاستخبارات العسكرية في القوات الأمريكية الى أن وحدة من قوات حركة التمرد الشيوعي (الفيتكونغ) هي المسؤولة عن القتل، وإنها مختبئة في قرية ماي لاي الفيتنامية.

صدر أمر الى ضابط أمريكي يدعى (و. ك.) بتطهير القرية من المتمردين، فدخل مع جنوده القرية في صباح يوم 16 آذار 1968 وباشروا بتفتيشها، فوجدوا فيها 700 شخص كلهم من كبار السن والنساء والأطفال. بعد ثلاث ساعات من دخولهم القرية، فقد الجنود السيطرة على أعصابهم نتيجة لعدم استطاعتهم الحصول على اية معلومات من السكان توصلهم للمطلوبين، فثارت ثائرتهم وقاموا بضرب القرويين والنساء والأطفال والمسنين باعقاب بنادقهم وإطلاق الرصاص عليهم، وقام (و. ك.) بنفسه بقتل العشرات، وأمر مجموعة من الضحايا بالنزول في خندق شرقي القرية تصب فيه مياه المجاري، ولما تجمعوا فيه أطلق الجنود عليهم النار عشوائياً حتى أبادوهم جميعاً، طفل لا يتجاوز السنتين من العمر نجا بأعجوبة من الرشقة الأولى، حاول أن يحبو بعيداً عن حضن والدته الملقاة على حافة الخندق فدفعه (و. ك.) بنفسه إلى الخندق من جديد وأجهز عليه.

نساء اعدمن بطلقات في مؤخرة الرأس، بنات لا يتجاوزن الخامسة عشرة اغتصبن. قام الجنود الأمريكان بقتل الماشية، ورمي جثثها بآبار

مياه الشرب، ليتم تسميمها، ثم جمعوا القرويين العزل وأمروا بإضرام النار في بيوتهم،.وعند الساعة الحادية عشر من ذلك اليوم كان كل شيء قد أنتهى في قرية ماي لاي.

– يا لهم من مجرمين قتلة! وماذا جرى بعد ذلك؟

– بعد مرور عام على تلك الأحداث وفي شهر مارس من سنة 1969 قام أحد جنود (و. ك.) ببعث رسائل الى عدة شخصيات ومؤسسات رسمية مبلغا بذلك عن ملازمه، كاشفا فظاعة مجزرة كانت ستموت مع ضحاياها.

حاولت الولايات المتحدة التستر على هذه الفضيحة وتم التكتم عليها لمدة عام كامل ولكن الصحفي الأمريكي الشهير سيمون هيرش كشفها ليفجر فضيحة مدوية، فتم فضحها أواخر عام 1969.

وفي 12 تشرين الثاني(نوفمبر) 1969 أعلن الجيش الأمريكي فتح التحقيق مع الضابط (و. ك.) الذي قاد الوحدة العسكرية الأمريكية التي نفذت المذبحة ضد سكان القرية.

والى اليوم ما زال عدد ضحايا المجزرة غير معروف، لكنه قُدر بنحو 504 قتلى،تتراوح اعمارهم من عام واحد الى 82 عاماً، ولم يتم اكتشافها إلا بعد عام من ارتكابها.

– وهل تم تقديم المجرمين للمحاكمة؟

– نعم عقدت المحكمة، وصدر ضد (و. ك.) الحكم بالسجن مدى الحياة مع الأشغال الشاقة، ولكنه لم يمض بالسجن سوى أيام قليلة

نقل بعدها إلى العاصمة الأمريكية واشنطن ليوضع في منزل تحت الإقامة الجبرية فقط، ثم إطلق سراحه بعد أن منحه الرئيس الأمريكي نيكسون عفواً خاصاً سنة 1974.

انتهت الامسية الخريفية في تلك الليلة في الديوان والجميع في قلق مطبق.

2

كان هدف قوات المارنز الأمريكية هو القيام بعملية إستعادة مدينة حديثة من المسلحين الذين سيطروا عليها، غير ان المعلومات الإستخبارية المتوفرة لدى هذه القوات جعلتهم يتحسبون من وجود مقاومة شرسة لقواتهم، على غرار تلك التي واجهتهم عند الهجوم على مدينة الفلوجة واستعادتها قبل عام، في ما أصبح يعرف بمعركة الفلوجة الثانية. تلك المعركة التي استغرقت اربعة اسابيع تكبدت فيها القوات الأمريكية الكثير من الخسائر والتي تعد الأقوى بعد المعارك التي خاضوها خلال حرب فيتنام واستخدموا خلالها أساليب شرسة وقاسية راح ضحيتها المئات من المدنيين. لكن المفاجأة هي ان القوات الامريكية لم تجد في تلك الليلة، التي كان المفروض ان يبادروا بالهجوم على حديثة فيها، أي مقاومة ولم يسمعوا خلالها سوى صراصير الليل .

لم تتعرض القوات الامريكية المهاجمة الى أي مقاومة أو هجوم مضاد من المسلحين، فأحتلت الكتيبة الثالثة من تلك القوات بناية

إحدى المدارس المهجورة في وسط المدينة وإتخذتها قاعدة لها. كان آمر المجموعة الأولى فيها هو الرقيب مارك جوزيف الذي كان قادما للعراق منذ فترة وجيزة ولم يشهد او يشارك بأية معركة حقيقية بعد. هو رجل يبلغ الحادية والثلاثين من عمره، ينحدر من مدينة ميريدين في ولاية كونكتيكيت، وهي الولاية التي يطلق عليها ولاية الدستور لأنها اسست بوثائق أساسية رسمية وإعتبرت أول الدساتير في أمريكا الشمالية، ومساعده في المجموعة العريف الاول ديفد بنيامين الذي شهد معارك الفلوجة وشارك في قتل المدنيين على خلاف آمره الذي كان قادما للعراق لأول مرة .

بعد فترة وجيزة أدرك الأمريكان انهم في مدينة لها خصوصية مميزة، فحديثة مدينة هادئة جميلة في غرب العراق. تغفو على ضفتي نهر الفرات، وتنتشر فيها بساتين النخيل التي ترويها دواليب ضخمة مصنوعة من خشب ينتج محليا .. هذه الهياكل العجيبة، يدعونها ب (النواعير) لذا .. فقد اطلق على هذه المدينة اسم مدينة النواعير التي لولاها لما كانت مدينة حديثة . وتنتظم البساتين الغنية بأنواع التمور والحمضيات والفواكه الآخرى على ضفتي النهر، هذه البساتين والضفاف المشرفة على مياه النهر التي تنساب فيها زوارق الصيد وتتعالى اصوات الصبية وهم في شواطيئها، كل ذلك، يجعلها مقصدا للسائحين خاصة ايام العطل والأعياد فتزدحم خلالها الشوارع والمحلات والطرق المؤدية الى ضفة النهر.

ولهذه المدينة أهمية كبيرة اذ ان شبكة من انابيب تصدير النفط العراقي تمر خلالها باتجاه البحر المتوسط، وفيها يلتقي الخط الستراتيجي العراقي القادم من البصرة مع خط الانابيب القادمة من كركوك، وبالتالي تربط مراكز التصدير في سوريا ولبنان وفلسطين من جهة وميناء جيهان التركي شمالا من جهة ثانيةً ومع ميناء البصرة على الخليج العربي من جهة ثالثة.

3

الكثير من أحلامنا نسيناها، لكن الكوابيس ترسخ في الذاكرة ولا تتزحزح منها. ليلة احتلال سد حديثة كانت من تلك الكوابيس التي لا تنسى أبداً. كل ليلة من ليالي الحرب، كانت كابوساً من نوع مختلف، وحوش كاسرة، أفلام رعب متسلسلة، تراجيديا حزينة.

سد حديثة من السدود العملاقة على نهر الفرات، لذا شكل أهمية كبرى للقوات الأمريكية، حيث قامت تلك القوات خلال غزو العراق في عام 2003 بانزال جوي سيطرت فيه على السد،حتى قبل أن تحتل بغداد العاصمة.

طيلة ساعات النهار كانت السماء تمطر علينا ناراً وموتاً، طائرات وصواريخ وحمم نارية تلتهم كل شي، أما في الليل فالرعب شئ آخر، كأنهم لا يريدون أحداً أن ينام، كل شئ يتضاعف في الليل، الطائرات لا

تغادر السماء أبداً، أصوات الإنفجارات تترى وسط ظلام دامس وقلق ما بعده قلق.

في تلك الليالي كنا نوزع أبناءنا على أماكن مختلفة لنضمن ألا يموتوا جميعا دفعة واحدة. نستيقظ مرات عدة في الليل، نطوف عليهم نتحسس رؤوسهم واحداً واحداً لنطمئن عليهم .

كنت أسكن في المجمع السكني لسد حديثة، الذي كان ذا أهمية ستراتيجية مهمة، ما حتم وجود عدد من الوحدات العسكرية تحيط به لحمايته، وكانت تلك الوحدات تتعرض الى هجمات جوية قوية من قوات التحالف، فاصبح السكن في المجمع محفوفاً بالمخاطر، مما دعاني الى ترك منزلي عدة مرات لألوذ ببيت والدي وسط مدينة حديثة.

توقفت الأعمال واغلقت المدارس وشلت الحياة العامة في المدينة. محطات التوليد والتحويل الكهربائية تعرضت للقصف والتفجير وشبكات النقل والتوزيع تضررت كثيرا، فانقطعت الكهرباء وخيم على المدينة سكون ثقيل لم تألفه من قبل.

تلك الليلة، كانت باردة ومظلمة، كنت وزوجتي وبعض أبنائي ننام في منزلنا في سد حديثة. أيقظني خلالها إبني مرتين ليخبرني انه يسمع قصفاً شديداً بالطائرات، وان هناك اصواتاً لطائرات مروحية قريبة، فطمأنته واخبرته ان القصف ربما يكون على الوحدات العسكرية

القريبة، خاصة إنها تعرضت الى قصف كثيف، مضاعف في اليوم السابق، وطلبت من إبني ان يعود الى سريره وان (الصباح رباح).

نهضت مبكرافي صباح اليوم التالي، خرجت الى الحديقة،أوقدت ناراً في منقلة كان حطبها قد أعددته سابقاً، انتظرت النار حتى تهدأ ويخف اللهب لأنقل المنقلة الى داخل البيت لعمل الشاي وإعداد الفطور. كان الهواء بارداً والشمس قد بزغت تواً، لا أثر لحركة أو صوت من الجيران، سمعتُ إطلاقات نارية متفرقة، أثناء ذلك رأيت أحد الساكنين من الدور الأقرب للسد يسير مسرعا وزوجته خلفه، كان يسير بإتجاه بوابة الخروج من المجمع السكني، ثم سرعان ما تبعه شخصٌ آخر، سمعته يتكلم مع إبنه، نظرت اليه من خلال الاشجار، رأيت بندقية على كتفه، ويسرع مع ابنه بنفس الإتجاه، عرفت الشخص، فناديته من خلف سياج الحديقة:

- صباح الخير ابا مهدي ... !

بدت عليه المفاجأة عندما رآني وقال:

- لا زلت هنا !!

ثم أردف .قائلاً بنبرة مستفزة:

- إخرج بسرعة من الحي السكني؟ القوات الامريكية إحتلت سد حديثة. إنهم قريبون من هنا!!

صدمت لدى سماعي الخبر، أخذت زوجتي وأبنائي وخرجنا مسرعين، تركتُ سيارتي أمام البيت ومشينا خلال الفروع الضيقة بين المنازل، قاصدين باب الخروج الرئيسي الى مدينة حديثة.

تجنبنا المناطق المكشوفة لان القوات الأمريكية إتخذت من قمة السد موقعاً يجعلها تسيطر على كل المناطق الممتدة أمامها لارتفاع المكان.

بعد أن أجتزنا مجموعة الدور التي كنت أسكن ضمنها، ظهر أمامي الكثير من السكان يسيرون في الشوارع يحملون أطفالهم، يمشون أو يركبون السيارات المارة، ويتجهون الى مدينة حديثة على شكل نزوح جماعي مغادرين المجمع السكني.

مرت سيارة بيك أب لأحد الاصدقاء وفيها اشخاص عديدون أركبت زوجتي وبناتي وإبني الصغير معهم وظل ولداي الآخران معي وسرنا مع السائرين باتجاه حديثة التي إحتل الامريكان جزءاً مهماً منها صباح ذلك اليوم. هاهو سد حديثة يقع بيد الأمريكان، إنها بداية إحتلال القوات الامريكية للمدينة.

4

كانت مدينة حديثة قد سيطر عليها تنظيم القاعدة خلال خريف 2005م وبالرغم من ان القوات الامريكية كانت لديها قاعدة عسكرية في سد حديثة واخرى على طرفها الشرقي، قرب محطة ك3 النفطية، الا

ان المدينة كان يتحكم بها تنظيم القاعدة، ويحكم سيطرته عليها، وان الأرتال العسكرية الأمريكية التي تسير بشوارع المدينة تتصادم معهم او تتعرض الى الألغام والعبوات الناسفة.

توجد نقاط حراسة في مواقع محددة في المدينة كالقائمقامية ومديرية الشرطة أما باقي المواقع والأحياء السكنية فلا يوجد أي دور للسلطة المحلية فيها، وتكتفي القوات الامريكية بالمباغتات الليلية والإعتقالات من المنازل.

أصبحت حديثة ممراً رئيسياً لأعضاء التنظيم القادمين من سوريا، حيث يمرون من خلالها الى مثلث الموت داخل العراق كالفلوجة، التي اصبحت نقطة تجمع ستراتيجية وحيوية لهم.

من أجل ذلك تحديداً أرسلت القوات الأمريكية قوات المارينز الى حديثة.

ظلت الامور هادئة في المدينة طيلة ثلاثة أسابيع بعد وصول قوات المارنز. كانت فيها حديثة مدينة خالية من الحوادث، ولم تظهر فيها أية قلاقل، غير ان القوات الامريكية عثرت خلالها على عبوات ناسفة ومخابئ أسلحة، لكنهم لم يصطدموا بالمسلحين، غير ان الجنود الأمريكان كانوا يعانون من تعامل السكان وعدوا ذلك أمراً مزعجاً. ربما كانوا يتوقعون ان يستقبلهم الناس بالزهور كما صور لهم عملائهم

ذلك، فالناس عدا عن انهم يتعاملون معهم كغزاة محتلين لبلدهم، كانوا ايضا حذرين جدا من المسلحين الذين لا يترددون عن قتل كل من يتعامل مع الجنود الامريكان.

لم تلبث قوات المارنز ان تستقر في قواعدها أكثر من اسبوعين حتى بدأت تصل اليها معلومات إستخبارية تشير الى إزدياد نشاط المقاومة، وان وجود المسلحين الأجانب يشير أن هناك شيئاً ما يخطط له وان هناك هجوماً كبيراً في الأفق .

5

صباح يوم 19 تشرين الثاني نوفمبر من عام 2005 كان يوما خريفيا عادياً للمجموعة الاولى من الكتيبة الثالثة، فقد إعتادت على القيام بمثل تلك المهمات عشرات المرات من قبل، الا أن مهمتها كانت مختلفة كثيرا في ذلك اليوم .

إنطلقت المجموعة، في الساعة السادسة صباحاً، من القاعدة برتل عسكري مكون من أربع عجلات همر، بقيادة الرقيب مارك جوزيف وبمعيته أحد عشر جنديا من قوات المارينز.

إتجه الرتل الى مدينة حديثة لمرافقة وحدة جديدة من الحرس الوطني العراقي الى حاجز قريب، وإيصال الطعام الى جنود آخرين من مشاة البحرية الامريكية، موزعين في نقاط الحراسة في أماكن محددة في المدينة.

كان الجو بارداً والسماء صافية والمدينة هادئة والوقت مبكراً، وزعوا المؤن الغذائية على نقاط الحراسة وأكملوا كل مهماتهم، وفي طريق العودة، قرر الرقيب مارك جوزيف، مسؤول المجموعة، سلوك طريق بديل عن ذلك الذي سلكه في الذهاب وإتجه الى الحي العسكري، ولم يعتمد الطريق الرئيسي الذي يخترق وسط المدينة بموازاة النهر.

6

الشارع الرئيسي للمدينة يسير محاذيا للتلال التي تفصل المدينة القديمة، المكتظة ببساتين النخيل والبرتقال والمحاذية للنهر، عن الاحياء الجديدة، حيث كانت المدينة قد توسعت بإتجاه هضبة الشامية، بأكبر احيائها وهو الحي العسكري، والشارع الذي يؤدي الى الحي العسكري يبدأ بالصعود لتجاوز تلك التلال ويدعى هذا الجزء من الشارع (صعدة الحي العسكري)..

في الساعة السابعة صباحاً، كانت المجموعة تتحرك غربا متخذة من (صعدة الحي العسكري) طريقا لها، وعندما وصلت العجلة الاولى قرب التقاطع المؤدي الى تل المنارة، هز الموكب كله دوي كبير، رغم ذلك، حافظ الرقيب مارك جوزيف على هدوئه وتابع القيادة باتجاه الغرب، استدار العريف اول ديفيد بنيامين الذي كان معه في السيارة

الاولى الى الخلف ليرى ماذا حدث فرأى سيارات الهمر الثانية والثالثة ضمن الرتل الا انه لم ير الرابعة. وفجأة صرخ السائق قائلا:

- السيارة الرابعة أصيبت سيدي!!

إستدار جوزيف برأسه للخلف ثم أمر الجميع بالتوقف، طلبت المجموعة الدعم والمساعدة من القيادة وبدءوا اطلاق النار فوراً وبكثافة. كانت السيارة الرابعة قد تعرضت الى انفجار عبوة ناسفة، جرح جرائها السائق وأحد الجنود أما العريف أول توماس فردريك الذي كان راكباً فيها فقد حول الانفجار جسده الى اشلاء مبعثرة .

الفصل الثالث

أنتَ لن تَدوم لي!

عَلَى نَشْرَةِ الأخْبارِ في كلِّ لَيْلَةٍ

نَرَى مَوْتَنَا تَعْلُو وَتَهْـوِي مَعَاوِلُهْ

أَرَى الموْتَ لا يَرْضَى سِوانا فَرِيْسَةً

كَـأَنَّـا لَعَمْرِي أَهْـلُـهُ وَقَبَائِلُهْ

الشاعر تميم البرغوثي

1

إستيقظت ام احمد مبكرة ذلك الصباح، خرجت الى باحة البيت تنظر الى السماء ، تراقب الفجر، تنصت الى السكون. تساءلت مع نفسها، هل هناك صوت غير طبيعي!!؟ إطلاق رصاص او إنفجارات؟ هل الأجواء توحي ان الوضع آمن في المدينة؟

لطالما كانت ام احمد تتوجس خيفة لأي شيء، فمنذ إحتلال العراق قبل سنتين والأمن أعز فقيد على المدينة.

تناهى الى سمعها خرير المياه، هفيف نسمات الهواء تنساب صحبة نهر الفرات الخالد. منزلهم الصغير يغفو جنب زقاق ضيق في حويجة الحديثة، المطمئنة في أحضان الفرات، يحيطها احاطة السوار بالمعصم. حارة جميلة وبيوت تاريخية، تنتظمها أزقة ضيقة، يلفها سكون وأجواء بسيطة هادئة.

خمنت ام احمد، ان الوقت ما زال مبكرا، لم تسمع صوتاً لأي سيارة، لا حركة على الجسر الخشبي القريب منهم. كان عليها أن تتأكد إن الشوارع سالكة لكي تطمئن على أحمد عند خروجه لذلك فضلت أن تتريث في إيقاضه من النوم.

- (خلي ينام شوية النوب)

رددت ذلك مع نفسها.

يعتمد احمد على والدته في إيقاظه مبكراًفي الصباحات التي يسافر بها، كان يعمل سائق تكسي بين حديثة وبغداد بسيارته. احمد شاب متوسط التعليم في التاسعة والعشرين من عمره، يعمل بنشاط ومثابرة ويحرص على إستغلال كل فرصة تسنح له للعمل، فعليه ان يكمل مستلزمات زواجه في اقرب وقت .

كانت ام احمد تعرف ان المسافة الى بغداد طويلة، واحمد يحتاج الى وقت طويل للذهاب والعودة، لكنها فضلت ان تتأكد ان الصباح قد ازف، وان حركة الناس في المدينة اصبحت طبيعية، لتطمئن على ابنها. هي تخاف عليه من ان يتعرض لكمين من الجنود الأمريكان او ان يمر في شارع تنشب فيه معارك بينهم وبين المسلحين.

وضعت قوري الشاي على النار، وبدأت بتحضير الفطور. اعدته على مهلها ثم ايقظت احمد بعد ذلك. عاتبها أحمد لأنها تسببت بتأخره على الطلبة الذين سيأخذهم اليوم الى بغداد. تناول فطوره على عجل وخرج مسرعاً حاملا كوب الشاي بيده. ركب سيارته البيضاء التي كانت واقفة في منطقة الخريزة قرب النهر وانطلق عبر الجسر الخشبي، ثم إتجه الى منطقة الشيخ حديد حيث يسكن أكرم المشهداني.

صعد أكرم في السيارة وتحركت الى بيت عيادة الزاوي القريب، كان وجدي وخالد في إنتظارهما، وصل أحمد متأخراً عن الموعد

الذي اتفقوا عليه فقد كان الوقت السادسة والنصف صباحاً، ركبا في السيارة وانطلقوا جميعا الى الحي العسكري حيث يسكن محمد الطالب الأخير الذي سيسافر معهم.

2

ذهبت الى بيت الحاج عيادة الزاوي، قرعت باب منزله، إنتظرت قليلا، ولما لم اسمع رداً قرعته مرة اخرى، سمعتُ صوت حركة قدميه، عرفته من وقع العصا التي كان يتوكأ عليها. فتح الباب، فظهر حجي عيادة بقامته الطويله وبيده عصاه، يلبس الزي العربي مع شماغ ذي بقع سوداء، كان وجهه متعباً تبدو عليه ملامح المرض. رحب بي ودعاني للدخول، سرت خلفه الى ديوانه الذي كان بابه يفضي الى خارج المنزل، جلسنا معا فيما ذهب حفيده ليجلب لنا القهوة.

حدثني عن تردي صحته وذهابه المستمر الى الأطباء لمتابعة العلاج ثم عرج بحديثه لما تعرض له ولداه قبل شهر، حيث انفجر عليهم لغم قرب مدينة عنه اثناء قيامهم بجني الكمأ مما أدى الى مقتل أحد أولاده وإصابة الآخر إصابات قوية أفقدته إحدى عينية وإصابة الآخرى إصابة بالغة.

عزيته واثنيت على صبره وتحمله . قلت في نفسي انا جئت اليه ليتحدث لي عن ولديه اللذين قتلهما الأمريكان قبل اربعة عشر عاما لأجده يستقبل التعازي بابن آخر ورابع على وشك أن يفقد بصره.

تمر بالإنسان احيانا بعض اللحظات، يشعر خلالها بالخذلان، ويستسلم على مهل للحزن، يذعن دون مقاومة للكمد، اخذت هذه اللحظات تتكرر عند الحاج عيادة بوتيرة عالية هذه الايام.

ثمة شئ في ذكرياته غير قابل للفهم، شئ يغمره بحاجز سميك فيغيبه عن ما حوله، حتى انه يبقى فترة طويلة غير مبال بما يحيط به، ليس هناك في حياته الحالية ما يمكنه من العثور على ذلك الشعور بالفرح الذي مر به في الماضي، الا ان مثل هذه اللحظات عادة ما تترك لديه احساساً بالضيق النفسي يشعر خلالها بالوهن فتسوء صحته اكثر فاكثر.

بعد تناولنا القهوة .. تحدث بإسهاب، كان يتكلم وهو يجتر الذكريات من صدره مع تنهداته المتتالية، يتوقف عن الكلام أحياناً، تتغير ملامح وجهه عندما يذكر الحادثة، يغمض عينيه ويتنفس عميقا كأنما يشحذ عزيمته وصبره، حاول ان يتحاشى استسلام عينيه للدموع لكنهما اغرورقتا فاشاح بوجهه باتجاه الباب كأنما يطلب نجدة تساعده على الصمود.

****

عيادة الزوي

بعد ان تخرج ولدي وجدي من اعدادية الصناعة، وجد ان أمامه عدة خيارات لإكمال دراسته. قدم اختياراته في استمارة التقديم للقبول المركزي للجامعات والمعاهد، وبنفس الوقت قدم للدراسة في معهد المعلمين الموجود في حديثة، لكنه جعل ذلك خياراً

احتياطياً فقد كان يفضل الجامعات والمعاهد الفنية، وانتظر صدور نتائج القبول المركزي .

بعد أن ظهرت النتائج وجد إسمه ضمن قوائم المعهد التكنولوجي في حي الزعفرانية في العاصمة بغداد، وكان إسما صديقيه اكرم ومحمد معه ايضا في نفس المعهد. فرح وجدي بذلك غير انه كان متردداً وخجلاً من أن يطلب مني السماح له بالذهاب للدراسة في بغداد، لأنه يعرف انني أفضل معهد المعلمين في مدينتنا. فالظروف كانت صعبة ومعقدة من كل الجوانب وخاصة الأمنية منها. أخبرني ان فرص العمل تكون أوفر وأوسع إذا ما درس في المعهد التكنلوجي مما دعاني للموافقة وباركت له ذلك.

ذهب وجدي مع زملائه أكرم ومحمد الى المعهد في بغداد لأكمال مستلزمات تسجيلهم. إبني خالد الذي كان موظفا في مصفى النفط في مدينة البيجي سبق له ان درس في بغداد في نفس المعهد ولديه اطلاع ومعرفة جيدة عن العاصمة بغداد عكس أخيه وزملائه الذين كانوا يذهبون الى العاصمة لاول مرة لذلك أخذوه معهم الى بغداد. اكملوا متطلبات قبولهم ثم عادوا الى حديثة لحين البدء الرسمي للدوام.

اتفقوا جميعا على الذهاب الى بغداد مرة اخرى بعد ان تحدد موعد الدراسة فكان سفرهم صبيحة 19 تشرين الثاني من ذلك العام.

لم تكن حديثة فقط هي التي كانت تعاني من عدم الإستقرار، فمدينة العبيدي التابعه لقضاء القائم كانت تعاني أيضا، وتضاربت المعلومات

الامنية عنها في تلك الايام فالمدينة محاصرة من قبل القوات الامريكية، دخلوها وضربوا حولها طوقا امنيا شديداً إثر تزايد اعمال العنف والمقاومة فيها. انقطعت اخبار ساكنيها عنا. كان أحد ابنائي يسكن هناك، هو أحد العاملين في الشركة العامة للفوسفات. كنت قلقا لأني لا أعرف ظروفه ، فقررت ان أذهب لأراه واطمئن عليه وعلى عائلته.

أجرت سيارة تكسي، سائقها يسكن قريبا من منزلنا، سافرتُ منذ الصباح الباكر، كان الطريق الى ناحية العبيدي في ذلك الوقت تحفه معوقات كثيرة ونقاط تفتيش للقوات الامريكية التي كانت تقف في أماكن غير متوقعة، إضافة الى ما كان يجري من اضطرابات في المدينة ولا نعرف عنها شيئا. كل ذلك جعلني اتحسب لاي شئ مما دعاني لإبلاغ عائلتي بأنني قد أضطر للمبيت هناك لاسباب شتى لأعود في اليوم الذي يليه.

أخبرني خالد انه سيقوم بمعية وجدي بإستئجار سيارة أخرى للذهاب الى بغداد بدل التكسي الذي سيذهب معي والذي تعودنا أنا وأبنائي أن نستأجره لقضاء مشاويرنا معه .

كان يوما ولا كل الايام، ذلك الذي ذهبت به الى ناحية العبيدي، الطريق كان يغص بالارتال العسكرية الامريكية والحفر كثيرة فيه، خلفتها العبوات الناسفة العديدة التي كانت تنفجر على تلك الارتال . تأخرنا قرب راوة عبر تحويلة للشارع، وانتظرنا في مكان آخر لرفع لغم منه.

عندما وصلت ناحية العبيدي علمت إنها مغلقة منذ عدة أيام من قبل القوات الامريكية ولا يسمح لأي شخص من دخولها. لم يكن أمامي

من خيار إلا المجازفة ومحاولة الإقتراب من نقطة التفتيش التي تقيمها القوات الامريكية في مدخل المدينة، رفعنا علماً أبيض فوق السيارة وتقدمنا ببطء بإتجاه المدينة، شاءت الظروف أن نجد إن القوات الامريكية كانت قد بدأت بالسماح بدخول المدينة اعتبارا منذ صباح ذلك اليوم بعد أن يقوموا بتفتيش مكثف وتدقيق لكل الاشخاص الداخلين إليها.

بعد ان دخلت المدينة،ذهبت مباشرة الى بيت ولدي ووجدته مع عائلته سالمين معافين، فرحوا بي وسعدت بلقائهم، وتناولت طعام الغداء معهم، وبعد إطمئناني عليهم قمت مع ولدي بزيارة بعض أصدقائنا ومعارفنا من زملائه العاملين معه من أهالي حديثة، الساكنين هناك، لكي أطمئن عليهم وأخبر أهاليهم في حديثة عند عودتي، ودعتهم جميعا للعودة الى حديثة وانا فرح وسعيد مما قمت به في ذلك اليوم.

إنطلقت بنا السيارة في طريق العودة وعندما وصلنا قرية الخسفة على أطراف مدينة حديثة كانت الشمس قد بدأت بالمغيب، فقررنا أن نقضي ليلتنا تلك في قرية الخسفة، لان القوات الامريكية تغلق سيطرة التفتيش في مدخل مدينة حديثة عند مغيب الشمس ولا تسمح بدخول المدينة بعد ذلك لاي شخص، كما ان المدينة كانت تخضع لحظر تجوال للسيارات بعد مغيب الشمس في الشوارع الداخلية للمدينة. في تلك الأثناء جاء عدد من الاشخاص بسيارة بيك آب ينوون الذهاب الى حديثة فاقترحوا علينا أن نذهب الى نقطة التفتيش في حديثة لربما نصل قبل غلق السيطرة فندخل سوية وعكس ذلك نعود للمبيت في

قرية الخسفة مجبرين وامرنا الى الله . ذهبنا سائرين خلفهم الى سيطرة حديثة فسمحوا لنا بالدخول إذ وصلنا قبل موعد غلق السيطرة بدقائق.

ذهبنا الى بيوتنا رغم المجازفة، وفعلا واجهتنا قوات امريكية راجلة قرب السوق وكادت ان تستهدفنا بالرصاص.

في اليوم التالي، إستيقظت فجراً، صليت الصبح وجلست في الصالون ارتل ما تيسر من القرآن، جلس خالد ووجدي في المطبخ يتناولان فطورهما استعدادا للسفر، سمعتهما يضحكان، كانا سعيدين فرحين مستبشرين، فهما مقبلان على حياة جديدة ومتحمسان لها، أقبلا اليَ، والفرحة تغمرهما.

سألني وجدي:

- أبي هل أنت راضٍ عني وموافق على دراستي في بغداد؟ إذا لم تكن راضيا لن أذهب.

ضحكت معه ومازحته وتمنيت له التوفيق، لم يكن بامكاني ان أتجاوز السعادة والفرح البارزين عليه.

جاء السائق فودعاني وذهبا وهما يضحكان.

3

في بيت صغير في الحي العسكري يسكن بتال ابو محمد، رجل بسيط، تبدو عليه آثار التعب والهم وأعتلال الصحة.

رحب بي واستقبلني في بيته، طلب لي الشاي وجلسنا في (الطرمة) نحتسيه معا، سألته:

- كيف صحتك يا أبا محمد؟ ان شاء الله بخير...

- ليست على ما يرام، أصبت بأزمة قلبية بعد أن فقدتُ إبني، تردت صحتي منذ ذلك الوقت ، أصبحتُ كثير النسيان، قليل التركيز، لم تعد الحياة سهلة كما في السابق ، أعيش ما بقي من حياتي دون رغبة.

- هل تقصد انك نسيت تفاصيل ما جرى في ذلك اليوم؟

- لم تعد ذاكرتي كما كانت ، لقد أصبحت ضعيفة لكن سأحكي لك ما علق فيها من أحداث ذلك الصباح، وربما هو كل ما بقي فيها!.

****

بتال الغريري

عندما اذكر الأحداث التي جرت، ذلك اليوم، يبدو لي، ربما لكثافتها وهول الفاجعة فيها، وكأنها أطول مما حدثت رغم انها لم تدم كثيراً.

تأخذني الذكرى بعيداً الى زمن قديم، أشيح بنفسي عنه كي لا أعيشه مرة أخرى، فيقفز أمامي كاشفاً عن وجهه الحزين مصراً ان يأخذني اليه، يأسرني بهوله، ويستفزني بجبروته، هزمني ذلك الزمن وانتصر علي، كلما احاول نسيانه يظهر لي في منامي، وها انت تريد ان تعيده لي في صحوي،في زمن ضعفي.

تمر في حياة كل انسان منا مواقف وأيام لا يريد ان يتذكرها يوما، يتمنى لو أنها تمسح من ذاكرته ولا يبقى لها أثر في حياته، لكننا لا نستطيع محوها لمجرد أنها اصبحت من الماضي. تعود بي الذاكرة الى ذلك الشاب الهادئ الذي هو ابني وفلذة كبدي بكل تلك التفاصيل والذكريات التي لا تنتهي، قلت له يوما:

- يا محمد سأفتقدك يوما ما! انت لن تدوم لي، فلست محظوظا في هذه الدنيا الى الدرجة التي يصبح لي فيها ابنٌ مثلك.

كان ينظر الى عينيَ كل صباح متلمسا مواطن الهم فيهما ليعمل على التخفيف منه ، لم يزل طالبا في الاعدادية عندما بدأ يعمل في صناعة الطابوق (البلوك) مع زميل له، قال لي يوما:

- لا عليك يا ابي سأتكفل بالتخفيف عن همومك المالية، سأعمل وادرس في نفس الوقت .

لماذا على الطيبين أن يموتوا ويتركونا نتجرع أسى البقاء في هذا العالم الموحش الظالم؟ فكرة الموت لا استطيع سبر اغوارها فكرة مؤلمة لكنها حقيقة، لا افهم كيف تختار زبائنها، هي تختارهم وحسب وتتركنا نتجرع المجهول في ابشع مصير.

كنت فخوراً بإبني محمد الذي التحق بالمعهد التكنلوجي في بغداد ذلك العام . شعرت بإن حلمي في أن يكمل محمد دراسته قد تحقق، لم أكن أريد له أن يترك دراسته مبكراً للبحث عن وظيفة كما عملت أنا،

لذا كان فرحي به وهو يذهب الى بغداد للدراسة شديداً، غير إن شيئاً ما كان يقلقني ويجعل قلبي يدق بعنف لم أكن أعرف سببه.

إستيقظت مع الفجر، صليت ودعوت الله ان يوفقه في دراسته ومسعاه، تناول فطوراً بسيطاً، شرب شايه وهو ساهم ربما يفكر بمستقبله او ربما كان يريد ان يطلب مني شيئاً، شربت الشاي معه فيما كانت والدته تضع يدها على رأسه وتقرأ بعض ايات القرآن، ثم خرجنا.

سرت معه الى قرب الجامع الصغير في الحي الصناعي وهو المكان الذي اتفق مع اصدقائه ان ينتظرهم فيه والواقع في شارع الحي العسكري .

حملت إحدى حقائبه، فيما حمل هو الآخرى وسار جنبي. إنتظرنا قرب الجامع وقتا طويلا قبل أن تصل السيارة التي تأخرت كثيرا عن الموعد المحدد.

وصل السائق احمد اخيرا، ركب محمد مع زملائه، سلموا عليَّ وتمنيت لهم الوصول بالسلامة، كان محمد آخر الطلبة الذين ركبوا في السيارة قبل ان تنطلق الى بغداد .

إنتظرت بعض الوقت حتى اختفت السيارة بالمنعطف عند بداية نزول الشارع. هممت بالسير بإتجاه البيت عندما سمعت صوت إنفجار قوي قادما من جهة صعدة الحي العسكري، حيث اتجهت السيارة. شعرت حينها ان ساقيَّ إرتجفتا وضعفتا وما عادتا تستطيعان حملي،

رفعت يديَّ الى السماء أدعو الله أن يحمي إبني، وازدردت ريقي الذي جف تماما.

وقفت أنظر بنفس الإتجاه، وسرعان ما ظهرت سيارة عسكرية امريكية في نهاية المنعطف، ثم توقفت، وترجل منها الجنود الأمريكان، بدأوا يطلقون النار في إتجاهات مختلفة، أطلقوا بإتجاهي رصاصتين، الا أنني تواريت خلف المنازل واتجهت الى البيت مسرعاً.

4

وصلت السيارة البيضاء الى (صعدة) الحي العسكري من الجهة المرتفعة، لا زال ركابها الطلبة يتبادلون التحايا وتذكير بعضهم باحتياجاتهم في بغداد، يمنون انفسهم بالأيام السعيدة التي سيقضونها هناك، كانواسعداء فرحين تتراقص الكلمات على شفاههم بنشاط وفرح، فجأة حدث الإنفجار الذي أيقظهم من احلامهم، كان الرتل الأمريكي امامهم، تطايرت الشظايا واجزاء الهمر المتفجر الى الاعلى فيما تصاعد الدخان ونشبت النيران ببقايا العجلة الأمريكية.

ارتبك أحمد واضطرب، انتابه شعور بالعطش، أوقف سيارته جنب الرصيف فيما كانت الشظايا والتراب والسخام يتساقط على السيارة وحولها. لم تكن اول سيارة في الرتل تبعد أكثر من خمسين متراً عن سيارة الطلبة التي كانت بالجهة المعاكسة لاتجاه حركة الرتل. انتاب الطلبة شعورٌ بالخوف والقلق وتبادلوا النظرات وهم في ذهول،

تسمرت أعينهم بإتجاه الجنود الأمريكان الذين بدؤا يصرخون ويرمون الرصاص في اتجاهات مختلفة.

لم يكن توماس فردريك العريف الأمريكي الذي تمزقت اشلائه في الهمر الأمريكي المنفجر جندياً عادياً في قوات المارينز، كان يمتاز عن اقرانه بصفات جعلت كل أفراد الكتيبة يعرفونه ويميلون اليه ويحبونه، فشخصيته البسيطة وحبه الدائم للمرح والهزار جعل معظم زملاءه من الجنود يتجمعون حوله عندما يرغبون بالتحدث والترويح عن انفسهم وقضاء أوقات مفرحة تنسيهم الغربة والخوف والقلق والبعد عن الأهل والأصدقاء.

ترجل الجنود الامريكان من عرباتهم، كانوا يصرخون ويطلقون الرصاص في كل الاتجاهات، بعضهم اتجه الى العربة التي اصيبت بالإنفجار لإسعاف الجرحى، اما الآخرون فاخذوا مراكزهم في مواقع وإتجاهات مختلفة. الخوف والتوتر والرغبة في الانتقام ومشاعر شتى سيطرت على عقولهم .

تقدم العريف دونالد كلايتون باتجاه السيارة البيضاء، هواجس عديدة كانت تزدحم في رأسه،صوب سلاحه باتجاه ركابها وبدأ يصرخ بهم بكلمات انكليزية وعربية مكسرة مستعملا الإشارات للتواصل معهم :

- (كيت اوف ذا كار) موف.....موف ... . انزل ...انزل

نزل السائق أحمد فنر أولاً، كان أكثر خبرة وجرأة من الطلبة، كان يشعر انه مسؤل عن حمايتهم ولديه عقد شرف إعتباري مع أولياء

أمورهم بإيصالهم سالمين، تبعهُ الطلبة واحداً بعد الآخر، الإرتباك والخوف والحيرة سيطرت عليهم، الجندي الأمريكي يصوب عليهم سلاحه، يصرخ بهم ويهددهم بسلاحه.

شعروا ان الموت قريبٌ منهم، لم يرتكبوا خطأ ما، هم يدركون ذلك، لكنهم يدركون أيضاً ان من يقف أمامهم، غريب عليهم، لا يحمل لهم سوى الإحتقار والكره، كيف يتفاهمون مع قوم لا يعرفون لغتهم؟ لا يثقون بهم؟ لا يشعرون بأية روابط إنسانية معهم.

حاولوا ان يصطفوا قرب بعض، وقفوا على (كوم) من الرمل جنب الشارع، أمسك وجدي ذراع أخيه، فيما لاذ كل شخص بالذي يليه.

- (لفت اب يور هاند)... ايدك فووك....ايدك فووك ....

- (لاي اون ذا كراوند) اركع.... اركع...(ليفت اب يور هاند) ايدك فووك... ايدك فووك

رفعوا ايديهم، رفعوها بذهول وحيرة، نبضات سريعة قفزت الى قلوبهم، تهاوى الضوء امام اعينهم، غشيتهم الرهبة، كم هي صعبه لحظات التاريخ المتهاوية امام جبروت الظلم، رددوا الشهادة ونظراتهم ساهمة باتجاه الجندي الامريكي.

أقبل الرقيب قائد المجموعة، بقامته المتوسطة وجسمه الممتلئ وأنفه الأفطس، كانت صورة جثة زميله الممزقة تتراقص امام عينيه

الغبيتين، أخذ يصرخ ويطلق الرصاص باتجاهات مختلفة، انحنى في الشارع، اخذ وضع الرمي وبدأ يطلق الرصاص على الطلبة العزل الى ان قتلهم واحدا بعد الآخر.

من هذا السرجنت الأمريكي؟ من الذي اتى به الى هذه المدينة البعيدة؟ كيف يأتي رجل عمره واحد وثلاثون عاما من مدينة (ميريداين) ،عدد سكانها يتجاوز نصف سكان حديثة بقليل، ولا يتجاوز عمرها المئتي عام، ليرتكب مجزرة في مدينة كانت ممراً لقوافل الأكديين قبل ألاف السنيين؟

سقطوا مضرجين بدمائهم، تختلج ارواحهم في اجسادهم الغضة.

نهض السائق احمد فنر مرة اخرى وهو ينزف، صارخاً بالجنود الأمريكان:

- نحن لسنا مجرمين لماذا تقتلوننا!؟... لماذا!؟

تقدم الجندي الأمريكي الآخر فأكمل عليهم جميعا.

سقطوا جميعا دون حركة، خمدت ارواحهم رخيصة في هذا العالم الجديد، عالم الديموقراطية وحقوق الانسان. كانت ام احمد قد قررت ان لا تتناول فطورها قبل أن يصل إبنها سالماً الى بغداد، لكنه لم يصل.

الفصل الرابع

أخاف الذكريات

ليس الوجع في أيام الفقد الأولى، بل حين تأتي الأيام السعيدة، فتجد أن من يستطيع مشاركتك بشكل أعمق، قد رحل.

وليام شكسبير

1

ان صوت الإنفجار على الرتل الأمريكي كان قوياً جداً.

قنينة (أوكسجين) كبيرة، مملؤة بالمواد المتفجرة، وضعت في حفرة على حافة الطريق، وفجرت (بالرموت كونترول) من مسافة بعيدة.

سكان المنازل القريبة إستيقظوا من نومهم فزعين، ساورهم الخوف والقلق، هرعوا الى نوافذ بيوتهم يراقبون القوات الأمريكية. كان السكان يفرحون إذا سمعوا ان المحتلين تعرضوا الى الهجوم، غير أنهم يقلقون جداً إذا كان مسرح الهجوم قريباً من منازلهم، خشية ما يعقب ذلك من نشوب مصادمات وتبادل إطلاق نار بين المهاجمين والقوات الامريكية. ما يزيد من قلقهم ان تلك القوات سرعان ما ترد بالرصاص وفي شتى الإتجاهات دونما أي إعتبار للمدنيين وسلامتهم، هذا قبل بدء عمليات تفتيش واسعة وإعتقال من شاءوا من المواطنيين مدفوعين بالإحساس بأن العراقيين يضمرون لهم الكره والعداوة ويتعاونون مع المسلحين للإيقاع بهم وهو ما يسوقونه كحجة لتبرير ردودهم الهمجية على الناس لا يستثنون حتى النساء والشيوخ والاطفال.

في أحد تلك المنازل القريبة، وقفت الحاجة خميسة خلف ستارة النافذة ترقب ما يجري في الشارع، كان ذلك المنزل هو منزل عبد الحميد الذي يقع على الجهة اليسرى من الشارع، يفصله عن موقع

الانفجار وادٍ غير عميق لكنه يزداد عمقا كلما اتجه صوب بساتين النخيل. كان منزلاً بسيطاً شيد بالحجر والجص وتم سقفه بالمادة نفسها وب (الشيلمان)، لم يكن الدار مسيجاً، ابوابه ونوافذه من الحديد، كان منزلاً متواضعاً لرجل بسيط يعيش فيه مع بقية أفراد عائلته الكبيرة.

لم تكن سوى الحاجة خميسة، ربة المنزل، مستيقظةً قبل وقوع الإنفجار، فزوجها عبد الحميد ما زال في فراشه، لا غرابة!! فهو في العقد السابع من عمره وأصبح مقعداً، يمضي معظم وقته مستلقياً على فراشه.

عاش عبد الحميد حياته مكافحاً من أجل أن يعيل إسرته، وينشئ أبناءه بإستقامة على التقاليد العريقة للإسرة، اشتغل عامل بناء في شبابه قبل ان يجد له عملاً في محطة للبنزين، أنجب عشرة أبناء بعدد متساوٍ من البنيين والبنات. كل بناته تزوجن وانتقلن الى بيوت ازواجهن في أحياء مختلفة من مدينة حديثة، فيما رحلت ثنتان منهن الى بغداد، اما ابناءه الذكور فإن عبد المجيد وسعيد وهما أكبر الأولاد فمتزوجان ويسكنان في المجمع السكني لسد حديثة مع عائلتيهما. أما الثلاثة الآخرون فيعيشون مع والدهم في نفس المنزل.

جهيد، يعمل في محطة ك3 النفطية، وهي محطة لضخ النفط العراقي الى سوريا،لم يكن متزوجا رغم بلوغه الاربعين عاما.

أما وليد فكان مؤذناً في جامع عبد الرحيم في السوق القريب ويعمل في محل تجاري في وقت فراغه، متزوج ولديه أربعة أطفال،

ولدان وبنتان، ايمان وعبد الرحمن وعبدالله والطفلة الصغيرة أسيا التي لم يتجاوز عمرها خمسة اشهر.

اما رشيد الإبن الأصغر فكان متزوجاً حديثاً إذ لم يمض على زواجه أكثر من خمسة أشهر.

لم تقلق الحاجة خميسة كثيراً بعد الإنفجار، فهي لا زالت تذكر ما قاله قائد مجموعة الجنود الأمريكان الذين زاروهم قبل أربعة ايام، خلال إحدى جولاتهم بين الأهالي كمحاولة لاستمالتهم وكسبهم وعدم معاداتهم، زارت مجموعة منهم عدة منازل متجاورة، من بينها بيت عبد الحميد، وزعوا عليهم عدداً من راديوات ترانسستر صغيرة، وطلبوا من الأهالي الإستماع الى اذاعتهم التي تبث أخبارا تبشر العراقيين بمستقبل سعيد وخير قادم بعد سنين الحصار الطويلة، كما وزعوا على الأطفال ألعاباً مطعمة بالخرز الناعم ما زاد في درجة فرح الاطفال بها، عبد الرحمن حضي براديو، اما عبدالله فكان من نصيبه لعبة صغيرة، وقال لهم حينها قائد المجموعة:

- نحن هنا لحمايتكم.

2

لماذا تم قتل جميع الطلبة وسائق سيارة التكسي ؟

هل قتلوا لأنهم حاولوا الهرب وأن ذلك يشكل تهديداً للجنود الأمريكان، كما ادعى مارك جوزيف لاحقاً ؟

أم كان ذلك انتقاماً لزميلهم ؟

ثم ماذا بعد ذلك؟ هل هدأ الجنود الأمريكان ؟

الماكنة الحربية الأمريكية تدور ، المارنز تحوطوا لكل شي، أخذوا مواقعهم فوق سطوح المنازل، الطائرات الحربية والمسيرة بدأت تراقب وتصوركل شيء، أوامر القيادة العليا بالتشدد وارسال التعزيزات على قدم وساق.

ادعى الرقيب مارك جوزيف والعريف ادورد ستيفن انهما سمعا اطلاق نار من اسلحة خفيفة. ما دعا جوزيف الى الإتصال بآمره لإبلاغه الأمر:

– سمعنا اطلاق نار من اسلحة خفيفة، مصدرها احد البيوت القريبة سيدي .

– طهر ذلك المنزل من الأعداء. عالج كل مصادر الخطر التي تعتقد ان لها دوراً في الهجوم عليكم.

بالرغم من ان الجنود الأمريكان لم يكونوا واثقين من ان اطلاق النار كان مصدره منزلا معينا الا انهم اشاروا الى منزل عبد الحميد، كان هو المنزل الذي ادعى الجنود الامريكان انهم سمعوا اطلاق نار من جهته.

فإتجهت الى المنزل مجموعة من الجند بقيادة الرقيب مارك جوزيف برفقة كل من العريف اول كينيث دانيال والعريف ادورد

ستيفن والجندي الاول مارك ميشال. لم يكن جوزيف قد تعرض الى اطلاق رصاص سابقا بشكل مباشر او شارك بقتال فعلي الا ان العريف أول كينيث دانيال من أعضاء مجموعته قد حارب في الفلوجة وشارك بقتل المدنيين العراقيين خلال إقتحامهم للأحياء والمنازل فيها خلال معركة الفلوجة الثانية.

عندما وصلوا الى البيت أصدر الرقيب مارك جوزيف أوامره ببدء الهجوم على المنزل وإزالة مصدر الخطورة فيه بإعتباره مصدر تهديد عليهم.

– إطلقوا النار دون الإنتظار لطرح الاسئلة على السكان ، لا ترددوا أبداً، لأن ذلك قد يتسبب بقتلنا جميعاً!

هل هناك مأساة اكبر من تلك ؟

بيت صغير على طرف الوادي يسكنه رجل كبير مقعد وأمرأة عجوز واطفال لا زالوا يرتدون بجامات النوم، طوقه اربعة رجال مدججين بالسلاح، تحميهم طائرات واقمار صناعية، كل ذلك للهجوم على ذلك المنزل البسيط دون ان يسألوا ساكنيه او يعرفوا عنهم شيئاً!.

يا لفاجعتك الكبيرة ايها الوطن! من لهؤلاء البسطاء في وطنهم وارضهم ؟!

لحظتها، كانت الحاجة خميسة في المطبخ تضع قوري الشاي على النار وتتهيأ لايقاظ زوجة وليد، لتساعدها في اعداد الفطور لإيمان وعبد

الرحمن قبل ذهابهما الى المدرسة، رشيد وزوجته يتأخران في إفطارهما كالعادة، أما بقية العائلة فهم يصومون ايام شعبان كما تعودوا كل عام.

بعد الانفجار إستيقظ الجميع، حاولوا ان يعرفوا شيئا مما كان يجري في الشارع، ترقبوا دخول الجنود الأمريكان اليهم، جلسوا في الصالون والخوف والقلق يخيم عليهم، يرددون مع أنفسهم كل ما حفظوه من سور القرآن الكريم، فيما بقي رشيد وزوجته في غرفتهما، أما وليد فجلس في غرفته بإنتظار الأمريكان للإجابة على أسئلتهم وإستفساراتهم حاملا القرآن في يده، يقرأ من سوره ويدعو الله ان يحميه ويحمي عائلته. لم يكن يعرف أو يتخيل ان قائد مجموعة المارينز التي ستفتش بيته أمر جنوده بتأجيل الأسئلة والكلام الى ما بعد القتل.

بدأ الجنود الأمريكان باطلاق النيران الكثيفة على المنزل قبل ان يدخلوه، ضرب العريف كينيث دانيال الباب بقدمه بقوة واطلق النار بكثافة ثم قفز بسرعة ورمى قنبلة يدوية في غرفة وليد ثم اطلاقات سريعة وتصاعد الغبار والدخان في الجو، .فسقط وليد مضرجاً بدمه، صرخت الحاجة خميسة وركضت باتجاه ابنها فسقطت في الممر بعد ان مزقها الرصاص ثم اتجه دانيال بشكل سريع الى الصالون فرمى قنبلة يدويه فيه، سقطت فوق سرير عبد الحميد وإنفجرت، وإنتشر الدخان والغبار، تبعه مباشرة رمي كثيف من قبل جنود الاحتلال لتتمزق أشلاء أفراد العائلة.

خلال ثوانٍ قليلة فتحوا جميع غرف المنزل، مستهدفين الجدران والأثاث برصاصهم وقنابلهم، تحول المنزل الى مقبرة يملأ غرفه

الغبار والدخان وتنتشر فيه النيران ورائحة الموت، يمزق سكونه أنين الجرحى، ترفرف في أرجائه أرواح الشهداء.

ما الذي جاء بهؤلاء الى ديارنا ؟!

اي ريح صفراء حملتهم الى شواطئنا.. الى قرانا وأحيائنا.. الى أزقتنا؟

لم يستثنوا حتى غرف نومنا !.

ديارنا غريبة عليهم، غريبة على أفكارهم وطقوسهم، اي قدر حل بنا؟ اي قدر وضع المتناقضات في حلبة واحدة، جعلنا طرفاً في حرب فرضت علينا دون وعي منا، نخوض حرباً خاسرة لا ربح فيها لنا.

من جمعنا بهم ونحن على طرفي نقيض؟ تاريخنا، أحلامنا، كل ما يمت بنا لا صلة له بهم.

هذا البيت الصغير حولوه الى ساحة معركة من معاركهم، كان القدر قد جعله هدفاً يفرغون حقدهم ووحشيتهم فيه!.

بعد أن إعتقد الجنود ان الجميع قد قتلوا وان النساء والأطفال والشيوخ زال خطر تهديدهم لحياتهم، غادروا المنزل.

لكن احد الجنود عاد ليدخل غرفة وليد، يتبول على جثته وهو يقهقه، ثم خرج ليعود ثانية وعبر النافذة، وجه منها قذيفة الى الغرفة، ليشب حريق فيها، وتحترق جثة الضحية.

3

كان رشيد وزوجته في غرفتهما عندما تعالى أزيز الرصاص ودوي القنابل اليدوية، تواريا تحت السرير، أصابت شظية رأس رشيد ففقد الوعي. أما زوجته فقد قدر لها ان تسلم لكن الخوف والرعب حولاها الى جثة لا حراك فيها، ساكنة كالأموات .

بعد أن صحت زوجة رشيد من صدمتها وايقنت إن الأمريكان قد غادروا البيت، خرجت من غرفتها لتتجه الى الصالة بحذر شديد، وجدت الجميع ممددين على الارض وسكون الموت يغمرهم، يتخلل ذلك بعض الآهات وحشرجات الموتى، وحدها اسيا، الطفلة الرضيعة ذات الخمسة شهور، كانت تبكي متشبثةً بامها التي كانت قد فارقت الحياة، تقدمت اليها فحملتها وهربت باتجاه بيت جيرانهم طارق بعد ان سلكت طريقا بين البيوت وخلال الأسيجة .

تصاعد الدخان بكثافة من بيت عبد الحميد، وقف الجنود ينظرون اليه كقطيع من الضباع التهمت فريستها ولم تبق منها الا أثار الدماء. تبادل جوزيف الحديث مع قادته فيما صرخ أحد الجنود بأن ثمة من يفر ، فأمر جوزيف رجاله بالهجوم على المنزل التالي وتطهيره، ذلك المنزل المجاور هو منزل يونس الذي كان محاذيا لشارع جانبي غير معبد.

كان يونس يعمل مفوضاً في شرطة الكمارك في مدينة القائم الحدودية. يذهب الى عمله ويعود الى منزله في حديثة باجازات

دورية. رجلٌ متوسط العمر، متدين، مواظب على صلاته في الجامع القريب الى منزله .

قبل اربعة ايام من ذلك التاريخ ادخلت زوجته المستشفى لإجراء عملية جراحية، وبعد خروجها من المستشفى، جاءت إختها لخدمتها وخدمة بناتها الخمس وابنها الوحيد محمد .

كانوا جميعا نائمين، حتى يونس هو الآخر قد نام بعد عودته من آداء صلاة الصبح في المسجد القريب. هبوا من نومهم فزعين اثر صوت الانفجار، تجمع الأبناء كلهم حول أمهم التي كانت راقدة على سريرها، كانوا خائفين، التفوا حولها، سحبت محمد إبنها وحضنته، زينب وعائشة الطفلتان الصغيرتان تمسكتا بجنبها الآخر، صفا ونور جلستا على حافة السرير، اما شقيقتها فجلست على طرف السرير من الجهة الاخرى .

حاول يونس ان يعرف شيئا مما يجري بالخارج الا انه فضل ان يجلس بالصالون، يتلو من سور القرآن الكريم .

كانت أصوات الرصاص والإنفجارات تصل الى سمع يونس، لكنه لا يفهم ماذا يجري، عندما ألقى الجنود الأمريكان القنبلة من الشباك على جثة وليد في غرفته، سمع يونس الصوت، شعر ان الصوت قريب، حاول أن يفتح باب المطبخ المواجه لبيت عبد الحميد لكنه أغلقه بسرعة بعد أن لمح النار تتصاعد من البيت.

هجم الجنود الأمريكان يتقدمهم الرقيب مارك جوزيف والعريف الاول كينيث دانيال، تقدموا بإتجاه باب المطبخ الخارجي وهم يطلقون النار بغزارة. كان باب المطبخ مصنوعاً من الحديد، نصفه الاعلى زجاجي مقسم الى نوافذ صغيرة ثابتة، وقف يونس خلف الباب يتهيأ لفتحه للأمريكان، كان يعتقد إنهم قادمون لتفتيش البيت. أصيب بعدة اطلاقات مباشرة فسقط على الفور ميتاً.

هجم العريف اول كينيث دانيال والعريف ادورد ستيفن على الباب بالقنابل اليدوية فيما كان الرقيب جوزيف والجندي الاول مارك ميشال يوفران لهما الحماية من الخلف . إندفع كينيث دانيال بسرعة الى الداخل وهو يطلق النار.

4

بعد فترة من الزمن صحا رشيد من غيبوبته، شعر بألم في رأسه، سار متثاقلاً الى الصالون، القى نظرة سريعة على القتلى، تناهى الى سمعه أنين عبدالرحمن فأدار رأسه ليجد إيمان واعية، تنظر اليه بخوف وحزن.

كانت إيمان ذات السنوات العشر هي البنت الكبرى لوليد، يليها أخوها عبد الرحمن وكانا كلاهما قد أصيبا بجروح وشظايا عديدة وسالت الدماء من أماكن مختلفة من جسميهما وإستمرا ممددين بين القتلى دونما حركة. الخوف والصدمة والجروح التي أصيبا بها قد شلت حركتهما .

التفت رشيد الى ايمان وسألها:

- (إيمان أكو شي بكصتي؟ راسي ثكيل!)

- (إي عمو ... أكو دم)

مد يده يتلمس جبهته فشعربسائل دافئ لزج يسيل منها، فكر أن يطلب النجدة من أقاربه في البيوت المجاورة، فمعظم ساكني الحي من أقاربه، وعليه ان يتصرف، فقرر ان يهرب اذا وجد فرصة مواتيه لينقذ نفسه ويخبر جيرانه بما جرى لأهله.

ربت على رأس عبد الرحمن بحزن .... ثم نظر الى ايمان وقال لها:

- (إيمان إبقي هوني مع أخوكي عبد الرحمن، هسه بس أروح للمطبخ أشرب مي وأرجع)

نهض من مكانه، تحسس جسمه، إتجه الى المطبخ، فتح الثلاجة وشرب قدحاً من الماء، كان يشعر بعطش شديد، اتجه مسرعا الى الباب الخلفي، نظر الى الخارج، ركض مسرعا هارباً الى البيوت التي هي في عمق الوادي، هناك بيوت أقاربه وهي بعيدة عن مكان الحادث، لمحه أحد الجنود الامريكان وكان قد تمركز على سطح أحد البيوت المحاذية للشارع، سدد عليه وأطلق النار فسقط على الأرض، بقي ينزف ويصرخ من الألم فترة طويلة دون ان يجرؤ أحد على إنقاذه، فالجنود الأمريكان ينتشرون على سطوح المنازل لإستهداف أي شخص يتحرك.

5

نحن لا نختار أقدارنا، لذلك ليس معقولاً ان نحزن على لحظات لم يكن لنا فيها قرار او فعل، لا يحق لنا ان نتوقف عندها طويلاً، لكننا لا نستطيع ان لا نحزن، لأن الحزن يلائمنا، يهرب بنا الى زمان لا وجود للعقل فيه، فتتحرر عبراتنا، وتنساب دموعنا، فننام ملء جفوننا.

ظلت ايمان راقدة بين القتلى فترة طويلة، تخبئ رأسها تحت الوسادة وقد حشرت نفسها بين جثث القتلى،دخان وبرد وخوف الا ان ما كان يزيد همها ويثقل قلبها بأوجاع مضاعفة هو بكاء عبد الرحمن من الألم والحزن.

واليوم وأنا استرجع احداث ذلك اليوم والمشاهد المؤلمة اتساءل: كيف اصبحت ايمان الآن؟

كيف هي مشاعرها واحاسيسها بعد كل تلك السنين؟

تلك الصبية التي تزاحمت عليها وكالات الأنباء والصحف العالمية حينها لتتكلم لهم عن تلك المأساة، تلك الصبية كانت تردد لكل من يسألها:

(اكرههم للأمريكان، قتلوا أهلي، ويقولون لي: آسفون!)

بماذا ينفعني أسفهم؟

حقاً، بماذا ينفعها ذلك الأسف!

خلال التحقيق الأولي الذي جرى حول القضية في بناية بلدية حديثة التي كانت مقراً للقوات الأمريكية، استقدموا الرقيب مارك جوزيف والعريف اول كينيث دانيال ثم سألوا إيمان:

– هل تعرفين هؤلاء ؟ هل سبق لك ان شاهدتيهما؟

– انا لم أكن في موقف يمكنني فيه، ان اعرف أحد!

– انهما من قتل عائلتك ويريدان ان يقدما اسفهما لك .

تقدم الرقيب جوزيف وخاطبها:

– نحن آسفون لمقتلهم ، لم نكن نقصد قتل المدنيين!

ايمان تخرجت من إعدادية التجارة وتعيش هي وأختها اسيا مع عائلة عمها سعيد. قالت في حديثها لي عن المجزرة التي كانت هي من اهم الشهود على احداثها:

****

ايمان

– هجموا علينا الأمريكان ونحن لم نزل في فراشنا، كنت أنوي الاستيقاظ للذهاب الى المدرسة.

رموا قنبلة على باب منزلنا، احدث انفجارها صوتاً قوياً، دفعوا الباب بقوة، تبعه رمي كثيف بالرصاص .

(اول ما طبواعلى ابوية) بالغرفة، قتلوه، صرخت جدتي، ركضت عليهم فقتلوها على الفور، جائوا الينا الى الصالون، رموا باتجاهنا قنبلة فسقطت على سرير جدي، مزقت اجسادنا بانفجارها، تصاعد الدخان والرماد في كل مكان، ملأ صوت الرصاص الأجواء، ارتميتُ على الأرض قرب السرير، تدحرجت تحته، لا اعرف اذا كان قد اغمي علي ام انني فقدت النطق وشلت أعضائي، بقيت بلا حركة.

مرت لحظات رهيبة لا استطيع تصورها او وصفها. نار وموت، اجسام بهيئات بشرية مخيفة تطلق الرصاص علينا، الشرر يتطاير من عيونهم، قتلوا أهلي بلا رحمة.

خرج الجنود الأمريكان بعد ان تركونا نتنفس الموت كل حين، الدخان ملأ الغرف، شبت النار في غرفة والدي، دخان كثيف انبعث منها،لم اكن اعي شيئا، انهارت قواي وشل جسدي، سكت الجميع إلا آهات تعلو من هنا وهناك، الموت حاق بالجميع.

سمعت (عبودي) يبكي قرب السرير، على مقربة مني. كان عبد الرحمن مصابا في كتفه وظهره ، نادى على والدتي، لكنها كانت لا ترد، احتضنت عبدالله وناما معا نومتهما الأبدية.

حاولت تهدئة عبد الرحمن، لكني خفت ان يعودوا الينا، تمنيت لو ان زوجة عمي رشيد اخذت عبد الرحمن معها ايضاً. كنت شاهدتها تأخذ أسيا، اختي الرضيعة وتخرج راكضة، كأني شاهدت ذلك في حلم، لم أكن متأكدة، انها كانت حقيقة.

نهضت من مكاني (شفت كل اهلنه ميتين كدامي)، خفت وفكرت ان اغادر البيت واطلب النجدة، قلت لاخي عبودي:

- (هسه ارجعلك)

خرجتُ مسرعة باتجاه بيت عمي يونس الذي كان مجاوراً لبيتنا، فوجئت ان بابهم الخارجي، جهة المطبخ، تعرض الى التفجير والحرق واثار الرصاص والقنابل اليدوية بادية عليه، كنت اعتقد اننا فقط تعرضنا للاعتداء، لكني عندما ذهبت لبيت الجيران عرفت انهم قد تعرضوا الى مجزرة مشابهة لما تعرضنا له، انتابني الخوف فعدتُ مسرعة الى بيتنا.

لم أكن اريد ان اترك عبد الرحمن وحده، بقيت معه وسط اهلي الممزقة اجسادهم، انا كنت مجروحة في رجلي ودمي ينزف،لكن النزف لم يكن قوياً.

رجعت الى البيت الذي اصبح مقبرة جماعية، أوصال مقطعة ودماء تسيل، والدي محروق حد التفحم، امي وأخي عبدالله جسداهما خامدان، جدي وجدتي لا روح فيهما، عمي جهيد نزف دمه حتى تيبس، عمي رشيد وزوجته وشقيقتي اسيا لا أعرف مصيرهم، لم يبقَ في البيت سواي وأخي عبد الرحمن،الذي كان يئن ويبكي، أعياني الخوف وسط حيرة لا ارى لها مخرجاً، لا أقوى على ترك أخي الجريح ولا أستطيع عمل شئ لإسعافه، لا جار يستطيع إنقاذنا، ولا قريب يقف جنبنا ويساعدنا، بعد غياب الأهل غياباً ابدياً.

6

«من اين ابدأ كلامي ؟

هل ابدا من ذلك اليوم الذي قدر لي ان اولد فيه من جديد؟

كان بقائي على قيد الحياة معجزة! .... لكنه ايضا مأساة!

مأساة رافقتني منذ ذلك اليوم، وأظنها سترافقني طيلة حياتي".

هكذا بدأت صفا حديثها!

تلك الصبية، هي الناجية الوحيدة من عائلة يونس، استمرت مرمية بين جثث اهلها اكثر من ثلاث ساعات.

لم تصبها رصاصات الجنود، لكنها فقدت الوعي من هول الفاجعة، وشدة الخوف الذي ما زال يؤرقها كلما تذكرته .

لم تكن تتجاوز الثالثة عشر من عمرها في يوم الفاجعة، اما الآن فهي زوجة لديها طفلان جميلان، تعيش مع زوجها في مدينة بغداد.

تتذكر احداث المجزرة وتتكلم عنها كأنها جرت أمس وليس قبل اربعة عشر عاما بأيامها ولياليها، لم تفارقها الذكرى ابداً، ينساب الكلام من فمها بسلاسة رغم ان جفنيها لا يستطيعان ان يخفيا دموعاً يتكرر نزولها كل حين.

****

صفا يونس

كنت صبية صغيرة، سعيدة مع أشقائي الخمسة، نور شقيقتي الكبيرة ذات الخمسة عشر عاماً وسبأ التي كانت الأقرب الي والحميمة الى قلبي ومحمد الأخ الذي افتقده كل يوم وزينب التي كانت سعيدة جدا في التحاقها بالمدرسة ذلك العام وعائشة الطفلة الصغيرة ذات الثلاث سنوات.

تغلبت على مأساتي بفضل زوجي وأطفالي، لكن لجدتي الفضل الاول فقد رعتني وغمرتني بحنانها، اما عمي فكان الشخص الذي عوضني الله به عن فقدان ابي ...

استيقظت ذلك الصباح المشؤوم على صوت الأنفجار، كنا نائمين جميعاً، حتى والدي نام بعد عودته من أدائه صلاة الصبح في المسجد القريب. كان الانفجار قويا، وكالعادة توقعنا ان يكون هناك تفتيش، فعمليات التفتيش للمنازل مستمرة، كل فترة تمر فرق من الجنود الأمريكان والحرس الوطني العراقي لتفتيش المنازل بحثا عن السلاح.

ذلك اليوم كان ابي في البيت يتمتع باجازته الدورية، أما والدتي فقد اجريت لها عملية جراحية قبل اربعة ايام ولا زالت راقدة على سريرها، خالتي كانت ضيفة علينا، استدعتها والدتي لتقوم مقامها في أمور المنزل من طبخ وتنظيف.

والدتي كانت قريبة الينا باستمرار،نحن البنات، تنصحنا، تعلمنا وتوجهنا، سعيدة بنا دائماً، غالباً ما تمزح مع والدي وتقول له ضاحكةً:

« لا بأس عليك يا يونس، غدا سيكون لك خمسة أصهار، سيكونون كأنهم اولادك، البنات حبيبات يا يونس»

ثم تحتضن عائشة وتغني لها:

(يما البنية شغالية كَبة وطرمة عالية

لا تفرحين يم الولد ناخذه ونخليج خالية)

كنا نشعر بالسعادة عندما نسمع ذلك من امنا، نفرح كثيرا ولكنا نشعر بالغيرة عندما نسمع امي تغني لمحمد:

(انت الروح والرية وكل الناس عارية)

اخي محمد ولد بعد ثلاث بنات وعانت والدتي الكثير حتى ولدت ولداً، كان مدللا اكثر منا، لكننا نحبه كثيرا كما يحبه ابي وامي .

سمعنا اطلاق رصاص بفترات مختلفة، لكنا لم نعرف مصدره او مكانه، حاول ابي ان يعرف ما يجري خارج منزلنا، لكنه فضل ان ينتظر، جلس بالصالون يقرأ ما تيسر من القرآن الكريم.

سمعنا قرعاً قوياً على باب المطبخ الذي يفضي الى الخارج. تجمعنا حول أمي التي كانت راقدة على سريرها، كنا خائفين، التففنا حولها، سحبت امي محمداً وحضنته ووضعته جنبها. زينب وعائشة شقيقتاي الصغيرتان تمسكتا بجنبها الآخر. أنا ونور جلسنا على حافة السرير اما خالتي فجلست على طرف السرير من الجهة الاخرى.

ذهب والدي لفتح باب المطبخ الذي كان نصفه العلوي زجاجي مقسم الى نوافذ صغيرة، عندما اقترب والدي من الباب لفتحه، سمعت وابلاً من الرصاص واصوات ارتطام الرصاص والقنابل اليدوية داخل البيت، ثم سمعت صوت صرخة وحيدة من والدي وشيئا يسقط، ثم صوت اقدام الجنود الأمريكان وهم يقتربون، بقينا ساكنين، ساد الهدوء بعد ذلك.

اعتقدنا انه ربما خرج الأمريكان، كنا قلقين على والدي جدا، سارت خالتي بهدوء وفتحت باب الغرفة، نظرت باتجاه الباب فوجدت والدي مقتولا ورأسه مشوه وينزف، صرخت صرخة قوية.وعادت مسرعة.

جاء جندي أمريكي، وقف على باب الغرفة وبدأ يرمي علينا بالبندقية، انا ونور كنا قد نزلنا بسرعة تحت السرير ولما رمى على الجميع شعر بحركتنا فمد ذراعه بالبندقية تحت السرير واطلق الرصاص باتجاهنا .

بعد دقائق من السكون شعرت ان الجنود قد غادروا فقلت لاختي نور:

- ذهب الأمريكان، دعينا نخرج من تحت السرير لنرى ماذا حصل.

لم ترد علي، مددت يدي اليها، فجاءت يدي على رأسها، احسست بدماء دافئة وحفرة في رأسها، كنت أضطجع خلفها، يبدو انها كانت مصداً للرصاص عني .

نهضت لأرى بقية عائلتي، نظرت الى السرير فوجدت امي وزينب وعائشة وسبأ دون حركة، خالتي كانت في وسط الغرفة على الارض

ملطخة بالدماء، في هذه الاثناء بدأ محمد يبكي، كانت كف يده ممزقة واصابعه مقطوعة والدم ينزف منها.

كنت صغيرة، اكملت الدراسة الإبتدائية ذلك العام،خبرتي بالحياة قليلة لم اكن لاتحمل كل هذا الذي حدث امامي، خوف ورعب وقتل بالجملة، مأساة لم استطع استيعابها، شعرت بدوار شديد وغاب وعيي فسقطت على الارض.

صحوت مرة أخرى، شعرت كأني في حلم، كان ضوء الشمس قويا في الغرفة، يبدو انني امضيت ساعات فاقدة للوعي، رأيت بقعة دم على الأرض وقطرات من الدم تتساقط عليها من السرير بين وقت واخر، نهضت من مكاني، نظرت الى أمي وأخواتي، لم اسمع صوتا لأحد منهم، كانوا ميتين جميعا، التفتُ الى محمد،لم أسمع له صوتاً، لم أكن متأكدة، اذا كان ميتاً او فاقداً للوعي، شاهدت بركة من الدم فوق السرير بين اخي واخواتي وامي، يبدو ان اهلي نزفوا دمائهم كلها، لم اجرؤ على لمس او مناداة أحد، كنت خائفة وفاقدة للتركيز، خرجت من الغرفة، سرت باتجاه باب المطبخ الذي يفضي الى الخارج، رأيت ابي قرب الباب ممددا ورأسه مهشمة والدماء تغطي الأرض.

خرجت من الباب واتجهت الى بيت عمي ياسين المجاور لبيتنا، فتحت الباب ودخلت، صدموا تماما عندما شاهدوني بملابسي الملطخة بالدم .

كان الوقت قبل الظهر بقليل عندما دخلت الى بيت عمي ياسين، لم يستطع عمي ان يفعل شيئا، حاول ان يذهب الى بيتنا ليرى ماذا يستطيع ان يعمل، وعندما اصبح في الشارع شعر ان هناك من صوب تجاهه، فعاد مسرعا الي بيته.

عند العصر قرر عمي ان نخرج من البيت، ليس بالاتجاه الذي هربت به معظم العوائل من البيوت القريبة الينا، لكننا اتجهنا الى بطن الوادي حيث بيت جدي الذي تسكن به جدتي ومعها عمي سعد.

سرنا نحن الأربعة،عمي وزوجته وانا وابنتهم، بحذر وعلى مهل، رفع عمي قطعة قماش بيضاء على عصا وسار أمامنا، كانت مجازفة منا ان نسير ورشاشات الجنود مصوبه باتجاهنا.

7

إنقضى النهار كله والجنود الأمريكان ينتشرون بالشوارع وعلى أسطح المنازل، يفتشون البيوت ويعبثون بها، يحققون مع الافراد ويضربونهم ويعتقلونهم، والناس أما قابعون في منازلهم دون حركة، أو يتسللون من بيت الى آخر مبتعدين اكثر ما يمكن بعيداً عن مكان تواجد الجنود الامريكان. أما البيوت المنكوبة التي قتل الأمريكان رجالها ونسائها وأطفالها فلم يستطع أحد التقرب منها، بقي منزلا عبد الحميد ويونس تكتنفهما الأسرار ولا يعرف أحد ماذا جرى او يجري هناك، زوجة رشيد هي مصدر المعلومات الوحيد عما جرى في بيت

عبد الحميد، أخبرت الجيران ان عائلتها قتلت جميعا، ولم يفلت من الموت سواها والطفلة آسيا التي هربت بها. لم تكن تعرف ان هناك جرحى بقوا ينزفون. تسربت الأخبار لعدد محدود من الجيران، تنقلوا أثر ذلك من بيت الى آخر الى أن وصلوا بيت حمود شقيق المرحوم عبد الحميد الذي كان في نهاية الشارع الفرعي. كانت البيوت المجاورة في ذلك الحي سكانها من الأقارب، فهم أبناء عمومة، لكن لم يستطع أحد المجازفة بحياته ويخرج لنجدة المنكوبين، خاصة بعد أن علموا ان الجميع قتلوا وقسم منهم شاهدوا (رشيد) يقتل أمامهم .

اما صفا فكانت الشاهد لما جرى لأهلها، فأخبرت عمها ياسين بذلك، لكنهم لم يستطيعوا ان يعملوا شيئاً وبقوا في منزلهم حتى مغيب الشمس فذهبوا بعد ذلك الى بيت العائلة القديم في أسفل الوادي.

أمضى جميع الجيران والأقارب ليلتهم يملؤهم الحزن والأسى، ناهيك عن القلق والخوف من أن يتكرر للآخرين ما جرى للعائلتين المنكوبتين. كانوا متلهفين لمشاهدة جثث قتلاهم والتأكد من مصيرهم، لكن لم يستطع أحد المجازفة بحياته وتعريض نفسه للقتل .

في صباح اليوم التالي تردد الجميع في الخروج من بيوتهم فهم لا يعرفون أين يتواجد الجنود الأمريكان، لكن فجأة شاهدوا سيارة في الشارع الفرعي القريب أخبرهم صاحبها إنه لا يوجد جنود أمريكان في المنطقة، وأنهم غادروا جميعا فهرع الجميع الى بيتي عبد الحميد

ويونس. لم يجدوا في المنزلين سوى الدماء والخراب ورائحة الموت وبقايا الحرائق. لم يجدوا جثث القتلى، لكن أثار سحلها على الارض وبقايا من أجساد الضحايا عالقة هنا وهناك.

إنتشر خبر وصول جثث القتلى الى المستشفى ، هرع ذوو وأصدقاء القتلى باتجاه المستشفى الرئيسي في حديثة، البعض يركض والبعض الآخر ركب سيارة مارة، والعديد منهم ذهبوا مهرولين.

8

في بطن الوادي كانت عدة بيوت يسكنها اقارب الضحايا منهم المحامي خالد سلمان الذي كان عضوا في المجلس المحلي لمدينة حديثة . هو شقيق احدى الضحايا وهي السيدة زوجة وليد. وهو الذي تحمل عبء كل تبعات القضية فتوكل عن كل ذوي الضحايا وعمل محاميا للدفاع عن حقوقهم.

بقي المحامي خالد، كسائر الذين في اسفل الوادي، لا يعرف اي تفاصيل عما جرى لأقاربه حتى عصر ذلك اليوم، رغم انه لا يبعد اكثر من 200 متر عن بيوتهم.

شاهد (رشيد) وهو يصرخ من الألم قبل ان يلفظ انفاسه، ورأى الدخان يتصاعد من بيت عبد الحميد فتوقع ان احداثاً جساماً حدثت لهم، لكنه لم يتوصل لمعرفة تفاصيل ما جرى هناك. غير أنه عندما سمع كلام صفا وعمها قبيل مغيب الشمس تجسدت أمامه المأساة .

في الصباح عندما علم المحامي خالد ان جثث الضحايا في المستشفى هرع اليها مع الآخرين. زرته في بيته عدة مرات كان خلالها يروي تفاصيل كثيرة عن المأساة التي كان على اطلاع واسع عليها.

****

المحامي خالد سلمان

حملنا الجثث من غرفة الطب العدلي في المستشفى، وضعنا خمس عشر جثة تعود لأقاربنا، عشرة منهم من النساء والاطفال، في حوض سيارة بيك آب وعدنا الى بيوتنا. شقيقتي وزوجها وابناءها وأبناء عمي وزوجاتهم وابنائهم.

هل هناك مأساة أشد قسوة من هذه ... لم يذكر احد من مواطني حديثة المعمرين نكبة كالتي ارتكبتها الولايات المتحدة الأمريكية.

من قال ان الرجال لا تبكي؟ فقد ابكت حتى الرجال! اللهم أبعد عنا الهم والحزن وقهر الرجال.

أقاربي الذين صعدوا معي في السيارة منهم من يبكي بدون دموع ومنهم من كان غزير الدمع، لكن بصمت ولا صمت القبور.

أنزلنا الجثث في بيت حميد حسن شقيق المرحوم عبد الحميد، تعالت شهقات الرجال وصراخ النساء، تجمع عدد غفير من الناس، رجالاً ونساءاً واطفالاً، الجميع في حزن وغضب، انها مأساة وجريمة بشعة يندى لها جبين الانسانية.

كنا على وشك اكمال مستلزمات تهيئة الشهداء للدفن عندما توقفت دورية أمريكية أمام المنزل ، نزلوا من عجلاتهم، كانت خمس عشرة جثة في اكفانها موضوعة جنب بعض، التقطوا عدة صور للجثث وذهبوا، ربما كان معهم صحفيون لأن الصور ظهرت لاحقا في صحيفة الواشنطن بوست.

رغم التوتر والخوف الذي سرى بين الناس بعد انتشار خبر المجزرة الا ان حشداً غفيراً من أهالي حديثة شاركوا في التشييع. تحاملنا على مأساتنا ودفنا الشهداء في مقبرة العائلة القريبة.

استمرت مراسم العزاء ثلاثة ايام، زارنا خلالها قائد امريكي واخبرنا ان هذه المأساة سوف تتكرر في اي حي من احياء المدينة اذا ما انفجرت فيه اي عبوة ناسفة على قواتهم الأمريكية، غير ان الذي كان يقلقنا ويتصدر اهتمامنا، رغم الحزن الذي خيم علينا، هو مصير الطفلين الشقيقين ايمان وعبد الرحمن، فلم نجدهم بين القتلى ولا أثر لهم في البيت.

جاءنا رجل للعزاء فأخبرنا انه كان قد احتجز في يوم الحادث في موقع قريب من مكان الانفجار، وعندما نقلوه الى ملعب حديثة الذي كان مهبطاً للطائرات المروحية شاهد هناك طفلين بنتاً وولداً. ترك ذلك املا لدينا في انهما قد يكونان من الأحياء، فمشيت دون هدى الى ان وصلت قرب فرن صمون عبد الرزاق محمد العبيد في شارع القائمقامية، رفعت

يدي وناديت على الجنود في نقطة التفتيش في إعدادية حديثة للبنات، التي يتم فيها تفتيش الأشخاص قبل دخولهم الى مقر القوات الامريكية الذي يقع خلف بناية مديرية التربية في موقعها القديم، رد عليَ جندي عراقي من الحرس الوطني كان في نقطة التفتيش، قال بصوت عال:

- اذهب من هنا!

فأجبته:

- أنا من أقارب الضحايا، وأريد ان أقابل مسؤولاً في القوات الأمريكية.

صرخ بي:

- إذهب من هنا... وإلا رميتك

فكررت عليه:

- انا محام، من أقارب الضحايا، أريد ان أقابل مسؤولاً في القوات الامريكية.

بعد قليل أشاروا بالموافقة، فذهبت اليهم، أدخلوني بعد التفتيش الى مقر القوات الامريكية، فاستقبلني أحد المسؤلين، ولما علم باني عضو في المجلس المحلي لقضاء حديثة قال لي بعصبية:

- انكم لا تعملون شيئاً، لا تساعدونا في ضبط الأمن في المدينة ولا في توفير مستلزمات الحكم فيها ولا تعملون معنا لتطوير المدينة.

لم أكن مستعداً لمناقشة هذه الأمور الآن، فدماء الشهداء لم تجف بعد ومصير اطفالنا الذين فقدوا مجهول، فلم أعر ذلك اهتماماً ثم قلت له :

- اريد أن تجيبني، ما هومصير إيمان وعبد الرحمن؟

فتح جهازالحاسوب وبدأ يفتح ملفات فيه، ثم قال لي:

- لقد نقلوا الى قاعدة بلد الجوية للعلاج، ثم حولوا الى مدينة الطب في بغداد واستلمتهم الحكومة العراقية.

فرحت بهذه المعلومات، عدت الى البيت ينتابني شعور بالرضا، أخبرت الأقارب والجيران الذين لا زالوافي مراسم العزاء، ففرحوا كثيراً عندما علموا ان ايمان وعبد الرحمن حيان معافيان.

9

عندما كانت إيمان تسترسل في سرد ذكرياتها تبدو كأنها تستحضرها من اعماقها بصعوبة، تتنفس الآهات مع كل جملة والعبرات تستنزف جفنيها، خبا ذاك البريق الذي كان يسطع من عينيها، اصبحت نظراتها ساهمة مثقلة بالهموم والأحزان. فرغم ان اسيا، شقيقتها، تعيش معها في بيت عمها وانها ترى اخاها عبد الرحمن كل يوم تقريبا فهو يعيش في بيت عمها الآخر القريب اليهم الا انها تفتقد والديها وتشعر بالحاجة الى امها.

****

ايمان

بعد ان بقينا فترة طويلة في البيت وحدنا، أنا وعبد الرحمن، مع جثث اهلنا، دخل علينا جنود من الحرس الوطني، سمعتهم يتكلمون باللغة العربية، انتابني بصيص من الأمل، شعرت انهم منا، من قومنا، عراقيون مثلنا، كانت لهجتهم تختلف عن لهجتنا لكنهم عراقيون، بدأنا نبكي أنا وعبد الرحمن ، اسمعناهم صوتنا، هرعوا الينا سمعتهم يقولون لبعض انهم اطفال جرحى تعاطفوا معنا وهبوا لنجدتنا وحمايتنا ذهب احدهم استدعى الجنود الامريكان،فأخذونا الى مقر وحدة عسكرية أمريكية قريبة، ثم نقلونا من ملعب المدينة بطائرة مروحية الى مستشفى بعيدة.

بقينا في المستشفى يومين كاملين اجروا لي خلالها عملية جراحية استخرجوا فيها شظايا واطلاقات من جسمي.

كنت على سريري في المستشفى وحيدة أجتر آلامي عندما سألتني الممرضة:

– هل تعرفين عنوان أحد اقاربك في بغداد؟ أو هل لديك تلفون احد من معارفك؟

فسألتها:

– وهل نحن في بغداد؟

– اجل نحن في مستشفى مدينة الطب في بغداد.

تذكرت اني احفظ رقم هاتف منزل عمتي التي تسكن حي الأعظمية في بغداد.

اتصلت بها وأخبرتها اننا ، انا وعبد الرحمن، في المستشفى. جاءت عمتي مع عمتي الاخرى التي كانت تسكن في حي السيدية مع زوجها وأخذونا، كانوا سعيدين بالعثور علينا، خاصة انهما (الاختين) لم تستطيعا ان تحضرا مراسم عزاء اهلهما في حديثة، ولم تشاهدا والدهما ووالدتهما واخوتهما من فترة طويلة لصعوبة سفرهما في ظل الإنهيار الامني وتفشي الحرب الاهلية.في العراق.

تواصل علاجنا في المستشفيات والعيادات الاهلية في بغداد الى ان تماثلنا للشفاء التام فاخذنا اولاد عمي الى حديثة بعد مكوثنا اكثر من شهر في بغداد.

10

يمضي العمر ... ولا ينتهي الحزن

مر الزمن .... وصوتك ما زال في اذني.....

(ضربونا الأمريكان، اول مجو على بيتنا ضربوا ابويه، هو كعد يقرا قرآن، ضربو بالرشاشة) هذا ماقاله الطفل عبد الرحمن في اول لقاء تلفزيوني معه ولم يكن بعد قد بلغ الثمان سنوات من عمره.

قد يبحث الانسان عن طريق مضيئ يحميه من غدر الزمان فلا يجد الا زقاقاً وعراً مظلماً، فيضيع في عتمته، يقوده الى المجهول، الى نفق

لا يعرف له قرار، الى ليل لا نهار له يقبع داخل النفس، يسيطر عليها ويحيلها نموذجاً غريباً يجتاحه الضعف والكآبة، معدوم الملامح، لا يقوى على مواجهة الصعاب، فيذوب تحت سنا الحزن.

غادر عبد الرحمن المستشفى بعد أن مكث فيها أربعة ايام. أجريت له خلالها عملية جراحية عاجلة تم فتح بطنه لمعرفة سبب الألام المبرحة التي كان يشعر بها. وجد الطبيب إنه كان مصاباً بتقرحات حادة في الإثني عشر. أجرى له الطبيب ما يلزم جراحياً ليقضي بقية فترة العلاج في البيت .

بعد عدة أيام، ذهبت لزيارته في بيت عمه عبد المجيد حيث كان يعيش هناك. جلسنا في الصالون، كان معنا عمه عبد المجيد وولداه محمد وبشار. عندما سلمت عليه لم يستطع رفع جسمه على إستقامته، كان ظهره مقوسا الى الأمام في حين كانت يده الأخرى تتحسس مكان العملية الجراحية. أخبرني إنه يتحسن ويتماثل للشفاء ببطء، إلا ان الشحوب لا زال واضحاً على وجهه، كان بحاجة الى وقت إضافي للتعافي.

لم نكن نحن الجالسين معه أقل حزنا منه، لكن حزنه كان فريداً، حزن غامض متشعب الأسباب، حزن ظاهر على عينين زرقاوين قلقتين، تتنقلان بين الجالسين بشرود وإرتباك.

كان عبد الرحمن نحيف الجسم، مجعد الشعر، ذا وجه طفولي تبدو عليه البراءة والجمود.. إنه اذاً ذلك الطفل الذي نجا من رصاص الجنود الأمريكان ليبقى شاهداً على الظلم والتعسف والجبروت .

- كم كان عمرك وقتها يا عبد الرحمن ....

- ربما اكثر من سبع سنوات

فعلق عمه عبد المجيد قائلاً:

- أقل من ثمان سنوات بشهر واحد.

- هل تتذكر شيئا مما جرى في ذلك الصباح يا عبد الرحمن؟

- .....!!

- ألا تذكر ذلك الصباح يا عبد الرحمن ؟!

- في بعض الاحيان .....

تردد كثيرا قبل ان يسترسل في كلامه:

- أحاول ان لا أتذكره ...

«اخاف الذكريات واهرب منها، انها طريقتي للنسيان...

لا اريد ان اتذكر ذلك اليوم، لا اريد ان اعيش ذلك الكابوس مرة أخرى، انه يرعبني، اكره كل احداثه، وكل من رأيتهم فيه، لا استطيع الاستمرار بالعيش وانا اتذكره، لا ارغب ان يذكرني به احد، ومع ذلك لا استطيع التخلص من اثاره. ذلك الكابوس المرعب! ما برح يأكل جسدي بعد ان اتلف اعصابي، شوش عقلي وغلف حياتي بالخوف والقلق، لا استطيع التركيز في دراستي ولا اعرف ماهو مستقبلي وكيف ستكون حياتي.

ها انت تعيدني الى ذلك اليوم مرة اخرى، أفتقد وجه امي، احتاج كثيراً الى حضنها الدافئ ابكي فيه، اعيش في بيت عمي كأحد ابنائهم لكني افتقد اخي عبدالله كثيراً.

ماذا كان يحدث لو كنت قتلت مع أهلي، هم ماتوا مرة واحدة، وأنا اموت كل يوم، لا يتعذب الذي يموت، لكن الأحياء هم الذين يعيشون العذاب بألوانه وصوره المختلفة. لم أعد أحتمل ان ينظر لي الاخرون بعطف، مللت نموذج اليتيم الذي قتل الأمريكان امه واباه واخوته، مللت من حزني وخوفي وقلقي، لم تعد الحسرة على اهلي تمر بسهولة، أصبحت تأكل من اعصابي وتمتص جذوة شبابي، اشعر غالبا اني كبرت، كبرت جدا حتى اصبحت كهلا ضعيفا يسير وحيدا بلا اسرة او معين، لكني سرعان ما اعود ذلك الطفل الصغير الذي لم يفهم قط سبب قتل اهله بتلك الصورة البشعه، لا اثق بالآخرين، ولا أطمئن للظروف، انها لن تتركني اشعر بالسعادة يوما، انا اخاف من المستقبل كما اخاف من الماضي، كلاهما يرعباني، متى يفارقني هذا الخوف لا اعرف».

الفصل الخامس

ألفتُ البكاء

وَيا وَيْلَنا مِن يَوم يَرحَلُ واحِد

وَيَبكي الذي يُبْقيهِ حد التوسل

عبد الرزاق عبد الواحد

1

تسلل الدفء الى زوايا المدينة مع صعود الشمس في السماء، وتلاشت قطع الغيوم الصغيرة المتناثرة هاربةً من الأجواء الملتهبة في البيوت القريبة من (صعدة) الحي العسكري، الا ان سكان الحي لازالوا في بيوتهم ينتابهم الخوف والقلق. لم تضيع قوات المارينز وقتها بلملمة نفسها أو الإكتفاء بما قاموا به ذلك الصباح من قتل وتمزيق لأجساد المدنيين الأبرياء، بل انهم استمروا بتفتيش المنازل واعتقال الكثير من سكانها.

في الساعة التاسعة والنصف صباحا، ذهبوا للتحقق من حركة أثارت شكوكهم في منزل جمال الغريري، الواقع على الجانب الأيمن من الشارع الذي شهد الإنفجار. لم يكن المنزل بعيداً، فهو على بعد حوالي مائة متر من الشارع الذي سلكه الرتل الامريكي، في شارع فرعي بإتجاه منارة حديثة.

يسكن جمال الإبن الأكبر للحاج عايد منزلاً منفصلاً جوار بيت أبيه، يضمهما سياج مشترك، ومعه كل من زوجته وإبنه خالد، الذي يبلغ عمره أربعة عشر عاما.

جمال كان ضابطا في الجيش العراقي السابق، صقل الجيش شخصيته فأصبح نظاميا معتداً بنفسه، ينصت إليه إخوته ويكنون له شديد

الإحترام لإهتمامه بهم وبشؤونهم، يحبهُ أصدقاؤه وجيرانهُ ويثقون به. هو بدوره يقف معهم عندما يحتاجونه، كان شديد الحب لمهنته ووظيفته في الجيش العراقي، عانى كما عانى اقرانه الآخرون،الذين سرحوا من الخدمة دون وجه حق بعد إحتلال العراق ما اضطره للعمل بتجارة السيارات لإعالة عائلته.

اما منزل الحاج عايد فيضم اضافة الى زوجته، ثلاثة من أولاده مع عوائلهم. جاسب كان ضابطا في شرطة المرور، يحب مهنته، سعيد بها، متفائل بمستقبله. لديه ولد صغير بعمر لا يتعدى عاماً واحداً وكانت زوجته حاملاً في شهرها السادس. أما مروان فهو مهندس يعمل في بلدية مدينة الحقلانية، وآخر الأخوة هو الشاب الأعزب قحطان.

كان يوسف خامس بنيه يسكن بيتاً منفصلاً لكنه في نفس الحي وعلى مسافة 200متر من بيت العائلة، أما الإبن السادس فقد استشهد خلال الحرب العراقية الإيرانية.

دخل الى منزل جمال أربعة جنود من المارينز هم كل من الرقيب مارك جوزيف والعريف اول ديفد بنيامين وإثنان من الجنود. تقدم ديفيد بنيامين الى باب الكليدور، رفسه بقوة بقدمه ففتح الباب على مصراعيه، إندفع الى الداخل بسرعة وخلفه جوزيف، وما أن دخلا الصالون حتى صرخا:

- إرفعوا أيديكم؟؟

حشروا جميع الموجودين في إحدى زاويا الصالون، طلبوا من جمال ان يسلمهم السلاح الموجود في المنزل، فسلمهم بندقيته، وهي كل ماموجود لديه من سلاح، فتشوا المنزل وبعثروا محتوياته، ثم بدؤا يحققون مع جمال، ولأنه كان ضابطا في الجيش السابق، لذا كان قلقاً من أن يعتقلوه. ذكر لهم أن إخوته يسكنون في بيت والده المجاور، وهم موظفون بالدولة، فساقوه مع زوجته وإبنه الى بيت والده.

2

بعد اربعة عشر عاما من ذلك اليوم المشؤوم والسيدة الصابرة الشجاعة ام جمال تتحدث عن تلك الاحداث كما لو انها اصبحت قدراً مقدوراً من حياتهم ومستقبلهم. كل ما يبدر منها من حركة أو سكنة خلفه قراراً اتخذته من اجل تربية أحفادها وتوفير سبل العيش الكريم لهم رداً على تلك الجريمة البشعة. قالت وقد إجتاحت محياها تقطيبة لم نألفها... تناها الينا صوتها يتهدج:

****

ام جمال

سمعت صوت إنفجار قوي، أعقبه صوت إرتطام على بيتنا، ثم أصوات متعاقبة على سطح المنزل . هبَ زوجي ابو جمال، خرجنا من الغرفة مسرعين، وجدنا جاسب وزوجته قد سبقانا الى الصالة، دخل مروان وزوجته من باب الكلدور والخوف والهلع بادياً على وجهيهما.

– إرتطمت كتلة حديدية بباب الكلدور، لقد حدث إنفجار كبير في صعدة الحي العسكري.

قال مروان ذلك، ثم اردف :

– كنا قرب السيارة قبيل مغادرتنا بدقائق!

كان مروان وزوجته يتهيئان للسفر الى بغداد، وعندما وضعا الحقيبة في سيارتهما داخل الكراج، سقط جزء من العجلة الأمريكية على الكلدور اعقبها تساقط الشظايا على سطح المنزل.

بعد قليل جائنا جمال وعلى وجهه مزيج من الخوف والقلق ليقول :

– (عرفتوا شصار) ؟

ثم أردف بحماس:

– عبوة ناسفة، إنفجرت على القوات الأمريكية ويبدو أنها آذتهم، وعلى الأغلب ان هناك قتلى منهم، لأنهم يطلقون الرصاص في كل الإتجاهات وصياحهم مستمر، رأيتهم من سياج البيت.

كان بيتنا وبيت جمال يضمهما سياج مشترك، لذا فنحن جميعاً اعتدنا الإنتقال من بيت الى آخر دون حاجة للخروج الى الشارع وكان في السياج ثغرة من جهة بيت جمال نستطيع عبرها رؤية الشارع بوضوح.

ثم استدرك جمال فقال :

– يجب ان تحذروا لأن الأمريكان عادة ما يداهمون البيوت القريبة وربما يشنون حملة إعتقالات .

صعد مروان الى الطابق الثاني ليشاهد من نافذة غرفته سيارة متوقفة في شارع الحي العسكري، أبوابها مفتوحة دون أن يستطع رؤية شئ آخر، ومن جديد أكد ان نحتاط لأن الأمريكان ربما قد بدأوا بحملة اعتقالات.

مضت أكثر من ساعتين، تناولنا خلالها فطورنا، كان مروان خلال ذلك يخرج عدة مرات ينظر من سياج بيت جمال بإتجاه الشارع الذي حدث فيه الإنفجار، لمراقبة ما يجري في إنتظار أن تغادر القوات الأمريكية لكي يسافر وزوجته الى بغداد.

في تلك الأثناء كان الجنود الأمريكان، قد إتخذوا من سطح منزل عبد الجبار الراشد مقرا للمراقبة والسيطرة على ما حولهم. كان هذا المنزل قريباً من بيتنا وبإمكان الجنود مشاهدتنا عندما نكون في الطرمة أو الحديقة او الكراج .

بدأنا نحضر مكونات عمل (الدولمة) للغداء، والعراقيون عندما يطبخون الدولمة يهيئون مستلزماتها وكأنهم يحتفلون بطقوس مقدسة، ثرمنا اللحم وحضرنا ورق (السلق) وهيأنا الرز والكرفس والبهارات وبدأنا (نلف) الدولمة، كنا نتنقل بين المنزلين كما هي العادة يوميا.

بدأت زوجة جاسب (تعجن) إستعداداً لإعداد الحبز عندما دخل علينا الجنود الأمريكان ومعهم جمال وزوجته وإبنه خالد. طلبوا من رجالنا تسليمهم السلاح، جاسب، ابني، سلمهم بندقيته وأخذوا بندقية زوجي أيضاً، طلبوا البطاقات الشخصية للرجال واخذوها، ولم يعيدوها .

أخرجونا جميعا، نساءاً ورجـالاً، أوقفونا صفاًجنب بعض في الطرمة، ثم أمر قائدهم أحد الجنود بسوقنا، نحن النساء مع زوجي الذي كان على كرسي المقعدين الى بيت جمال، مدعين أنهم يحتاجون الرجال للتحقيق معهم.

لم نكن نفهم لغتهم، لكنا عرفنا أنهم يكذبون، رأينا الحقد والغدر في عيونهم، اخذوا جميع أولادي الى داخل المنزل، حاولت أن أمسك بهم، كما حاولت النساء مسك أزواجهن بقوة لكن الجنود الأمريكان سحبوهم الى داخل البيت بعنف. عادت زوجة جمال فأمسكت بولدها خالد الذي كان صبيا في الرابعة عشرة من عمره، كانوا يريدون أخذه مع الرجال، لكنها سحبته، نظر الجندي اليها متردداً للحظات، ثم تركه فأخذناه معنا. أنا رفضت ترك أولادي وجلست على الأرض، تشبثت بالبقاء الى أن وجه الجندي سلاحه إلى الرجال وهددني بانه سيقتلهم ان لم اذهب. ذهبنا مرغمين خوفاً عليهم.

كنا خائفين، قلقين،نتوسل بهم ونبكي، لكنهم كانوا قساة، مجرمين، لا يحملون ذرة من الإنسانية.

دفعونا في داخل بيت جمال وأغلقوا علينا الباب. وقف أحد الجنود جنب الباب يحرسنا، ممسكاً بأكرته، كنا نصرخ ونطلب فتح الباب، وهو يصرخ بنا ويهددنا، عندما نسحب الباب، يعيد غلقه بقوة.

بعد دقائق قليلة سمعنا إطلاقات نارية، فعلى صراخنا، تجمعنا قرب الباب، سحبناه بقوة لكن الجندي كان أقوى منا، ثم رأينا الجندي يترك

الباب ويذهب مسرعاً، فتحنا الباب بسرعه وسط هرج وصياح، لمحنا الجنود يركضون خارجين من المنزل.

ركضنا الى بيتنا، خالد حفيدي كان يركض أمامنا، دخلنا البيت بسرعه، لا صوت ولا حركة، توزعنا بسرعه على الغرف باحثين عن الرجال، صرخت زوجة مروان وهي تدخل غرفة زوجي، تسابقنا جميعا الى الغرفة، فوجدنا شيئا مرعباً، أولادي الأربعة على الارض والدماء تنزف بغزارة من رؤسهم وصدورهم .

تعالى صراخنا، ثلاث زوجات يصرخن على أزواجهن، وأنا أتنقل كالمجنونة بين اربعة من ابنائي وأب مقعد لا يقوى حتى على البكاء على أولاده. حفيدي بكر، الرضيع، كان في حضن امه، فصم الصراخ اذنيه، أصيب بعطب العصب السمعي منذ ذلك اليوم ويستخدم سماعة الاذن حالياً. أما حفيدي خالد فكان يدور في البيت وينادي على والده ثم خرج مع والدته من البيت وهما يصرخان بهستيريا، لم يعودا يومها وبقي خالد فاقداً للذاكرة ثلاثة أيام.

جاءت زوجة إبني يوسف، أخبرتنا أنهم اعتقلوا زوجها عندما حاول دخول بيتنا، من بقي لي؟ حتى بناتي شاهدت احداهن مع إبنها ذي السنوات العشر لكنها بعد أن رأت إخوتها قتلى، عادت لبيتها باكيةً وتركت إبنها.

لا أعرف كم بقيت في الغرفة، أجلس بين جثث أولادي، وضعتُ رؤوسهم في حضني والدماء تتدفق بغزارة منهم، لم اعد أقوى حتى على البكاء.

بعد فترة، عاد عدد آخر من الجنود الأمريكان مع الحرس الوطني العراقي، طلبوا منا ان نترك البيت لكننا رفضنا بشدة، فسحبوني سحباً الى أن رموني في الشارع خارج البيت. بقينا في بيت جمال انا وزوجي وزوجات أولادي جاسب ويوسف ومروان فيما كان الجنود الأمريكان ينتشرون في بيتنا ويمنعونا من الرجوع اليه.

عند العصر خرجنا من البيت وسرنا بالإتجاه المعاكس لمكان الحادث، شاهدنا عدداً من الرجال من أقاربنا، كانوا متجمعين قرب جامع الحي العسكري، لا يستطيعون الإقتراب منا، لوحوا لنا بأيديهم، فذهبنا اليهم .

فجر اليوم التالي، عدنا الى بيتنا، لم نجد أحداً، كانوا قد رفعوا الجثث في الليل. أثر سحب الجثث على الارض كان واضحاً، الدم وأجزاء من المخ ترسم مساراً يمتد من الغرفة الى الشارع، حيث نقلوها من هناك بعجلاتهم.

عشت المأساة منذ ذلك الصباح، حزن وقهر ودموع.

3

في ذلك الصباح، وجدت عائلة عايد الغريري انها وسط دوامة شديدة، في لجة بحر هائج لا قرار له، لعبت بهم الاقدار كما تهوى، كما لو ان لعنة تلبستهم، تحول المنزل وساكنوه من السعادة والنشاط الى مأتم كبير ومأساة بشعة لا مثيل لها، في غضون دقائق فقط تحول كل شئ الى كابوس، صراخ وعويل بدأ وسيتواصل لسنين طويلة.

لم تكن الحاجة ام جمال تعير اي اهتمام للبكاء المستمر، فقد الفته، اصبح عملاً روتينياً.

كل ليلة تخاطب نفسها:

(إجاني الليل يا كلبي ..... حضري دموعك وابكي)

عندما استشهد ابنها في الحرب العراقية الايرانية، بكت كثيرا، كان شاباً في التاسعة عشرة من عمره، لكن ابنائها الآخرين عوضوها بالتفافهم حولها، اما بعد ان نكل الأمريكان بابنائها الاربعة الآخرين لم يبق لها سوى يوسف وليالي الحزن الطويلة.

تمشي بين أكوام التراب والحجارة المتناثرة، تتجه الى المقبرة، تشم رائحة عطرة، رائحة تذكرها بماض حزين وجميل، عطر الذاكرة هو من يجرجرها الى المقبرة.

بعد اربعة عشر عاما، لا زالت تجلس صامته امام قبور ابنائها، تناجيهم، تستذكر وجوههم، تغبط زوجها لأنه يرقد جنبهم، ثم تعود دامعة العينين، كسيرة القلب الى بيتها، تردد ما يقوله عبدالله النزال:

وارجع لبيتي غصب وجدامي تمشي بخوف

شحجي عنك للصور مو تارسات البيت

اختنك لو مر هوا ويحرك البيبان

واصرخ بحيلي هلا حسبالي انت اللجيت

كل ليلة تحلم بهم، تذهب اليهم، تلتقي بهم، وحين تستيقظ لا تجد سوى جفاف في حلقها ودموع مقيمة في مآقيها.

نشأت ام جمال، كما نشأنا نحن، على الخوف من المقابر ، فمنذ الطفولة وهي تسمع قصصاً عن عذاب القبر وسؤال منكر ونكير وغضب الشجاع الأقرع الذي يحاسب تارك الصلاة، والأموات الذين يخرجون من قبورهم والقصص الأخرى التي يقشعر لها البدن، وبالرغم من ذلك باتت اليوم حريصة على الذهاب وقبل بزوغ الفجر لتجلس بين قبور أبنائها لأستقبال العيد معهم.

غلب حزنها وحنينها الخوف الذي تغلغل في أوصالها منذ الطفولة، لم تعد تخاف من شئ، حتى الجنود الأمريكان عندما دأبوا على مداهمة منزلهم لم تعد تخشاهم.

بعد أقل من سنتين، توفي زوجها الحاج عايد، اعتكف في البيت بعد إعدام ابناءه بدم بارد. لم يكن يهمها ما قاله الجنود الأمريكان في المحكمة، كانت واثقة انهم اعدموهم بدم بارد وبلا مبرر ابداً.

امضى زوجها ايامه بعد الحادث في الغرفة لا يخرج ابداً، قليل الكلام، قليل الطعام، كثير البكاء. ضعف بصره جدا حتى اصبح لا يرى شيئاً، الأطباء اخبروها انه لا يرى لسبب نفسي، بعد فحص عينيه قالوا لها انها سليمة في الوقت الذي يدعي انه لا يرى شيئاً.

امتنع عن الطعام في أيامه الأخيرة، اصبح يعيش على القناني المغذية، أحد الأيام، صلى الفجر ونام ولم يستيقظ أبداً.

رغم أن الموت هو الحقيقة المطلقة في هذه الحياة وهو مصير كل حيّ، إلاّ أن فقدان أشخاص أعزاء أمر في غاية الصعوبة، فكيف اذا كان المفقودون اربعة ابناء.

مشاعر الحزن،عند عايد الغريري كانت قوية جدا واستمرت معه خاصة بعد أن أدرك بأنه لن يستطع أن يرى أولاده ويتحدث إليهم مرة أخرى، وبمرور الوقت تحوّل ذلك الحزن الى اكتئاب مرضيّ يحتاج إلى علاج دوائي ونفسي.

عندما يصل الشخص الحزين الى هذه المرحلة يبدأ بلوم نفسه، وأحياناً يُصاب بأعراض نفسية كأن يقوم بالكلام مع الشخص المتوفى ومخاطبته كما لو كان أمامه، وهذا ما يجعله يصاب بالاكتئاب الشديد. وقد يكون الشعور بالذنب وتأنيب الضمير قوياً في بعض الحالات، إذ يلوم الشخص نفسه لتقصيره في منع الوفاة، ورغم ان هذا الأمر غير صحيح، لكن الحالة النفسية لمن فقد عزيزاً تجعله يعاني مثل هذا الشعور، فيزداد حزنا على وفاته.

كثير من أقارب المتوفين يتقبّلون الأمر بعد أشهر، ويعودون إلى حياتهم الطبيعية ولكن البعض الآخر خصوصاً المتعلّقين بالمفقودين، قد لا يكون باستطاعتهم العودة الى حياتهم الطبيعية لفترة طويلة قد

تمتد أعواماً، يتعطّل فيها الشخص الحزين عن أداء المهمّات الموكلة إليه في تصريف شؤون حياته. وأحياناً يكون الوضع أشد وطأة عليه فيلحق بمن يُحب بعد فترة دونما مرض واضح ، فالنفس البشرية مُعقّدة وكذلك المشاعر تختلف من شخصٍ الى آخر، وهذا ما يميز بين الأشخاص في تقبّل رحيل شخص عزيز.

4

يوسف

كنت أسكن وزوجتي في منزل لا يبعد عن دار والدي أكثر من 200 متر. علمت بالجريمة بعد أن جائتني زوجة أخي جمال ومعها إبنها خالد وأبلغاني، خرجا من الباب الخلفي الأقرب الى منزلي وجاءا يركضان ويصرخان. ذهلت لسماع الخبر فهرعت الى بيت أبي قاصداً بابهم الخلفي، لكني وجدت الجنود الأمريكان قد إحتلوا الشارع الخلفي أيضاً،إعتقلوني قبل دخولي المنزل وساقوني الى الشارع الرئيس حيث حدث الإنفجار.

حزنت حزناً شديداً، أفكار شتى ازدحمت في رأسي.

سألت نفسي:

هل اخوتي جميعاً قتلوا؟ أم بقي أحد منهم؟ من بقي ومن مات؟ جمال، جاسب، مروان، قحطان؟

حاولت السيطرة على اعصابي وتهدئة نفسي، ربما ليس كل ما سمعته صحيحاً!

قد يكون بعضهم قتل ... وليس جميعهم، هذا غير معقول! ... غير معقول أبداً.

تعبت، أرهقني التفكير، خيم عليَّ الحزن والأسى، سحبوني في الشارع دونما أي اعتبار لكرامتي كأنسان، ضربوني واهانوني، تيقنت إنهم سيقتلوني.

لكن لا يهم، ليتهم يقتلوني، وما الفرق؟

التفت الى رصيف الشارع باتجاه ورشة كاظم الكهربائي فاذا مجموعة من الرجال قتلى على الرصيف يا ترى من هم هؤلاء الرجال؟!! كانوا خمسة ... كلهم في ريعان الشباب!!

ودونما تفكير سألت المترجم:

- من هؤلاء ؟

صرخ بوجهي .....

- إنهم إرهابيون، اليس كذلك؟ هل انت منهم؟

لم أكن أدرك شيئاً، فقدت السيطرة على حركتي،استمروا بسحبي في الشارع، رأيت أثار دماء وأجزاء مبعثرة من همر امريكي متفجر، الجنود الأمريكان ينتشرون ورشاشاتهم متحفزة.

قام أحد جنود الحرس الوطني العراقي، بعد أن علم ان إخوتي الأربعة قتلوا، بتقييد يديَّ ووضع قطعة قماش على عينيَّ وقال لي :

– إن هذا سوف يقلل من فرصة قتلك من قبل الأمريكان.

تركوني مقيدا ومرميا في الشارع حتى مغيب الشمس، ثم وضعوني بسيارة بها أشخاص آخرون، عرفتهم، كلهم من رجال الحي. نقلونا الى قاعدة أمريكية في المدينة.

في اليوم التالي اطلقوا سراحي، عدت الى بيت والدي لاشارك بمراسيم عزاء اخوتي.

تعرضنا الى مضايقات كثيرة من قبل القوات الأمريكية في الايام اللاحقة، فتشوا بيتنا مرات عديدة، كانوا يترددون علينا باستمرار، يقلقونا، يراقبوننا ويخيفوننا، إنهم مستهترون، يأكلون ويضحكون أمامنا وهم قتلة أبنائنا.

في إحدى الزيارات إعتقلوا شخصين من أقاربنا، كانوا يزورونا للتعزية، وفي مرة أخرى أزالوا أثار الطلقات من على جدران الغرفة التي قتلوا إخوتي فيها ومحو كل أثر للجريمة البشعة التي إقترفوها.

عدت لاسكن في بيت والدي. اصبحت معيلا لما بقي من العائلة ، والدي انهكه الحزن والمرض حتى توفي بعد عدة اشهر.

بنينا دارا صغيرة لعائلة اخي جاسب، فسكنت بها زوجته وولداها. خالد ووالدته بقيا في بيت اخي جمال المجاور لنا، كبر خالد وتخرج من الجامعة وعمل في كلية المعارف، فانتقلا للسكن في مدينة الرمادي.

عانيت كثيرا من الهم والحسرة على اخوتي حتى اصبت بجلطة دماغية، تركتني بشلل نصفي.

5

في الجهة المقابلة لمنزل عايد الغريري، يسكن أوس فهمي مع زوجته وابناءه الخمسة، رجل ناهز الاربعين من عمره، يعمل في الكمارك على الحدود الاردنية. في ذلك الصباح كان يغط في نومه في منزله مستمتعا باجازته الشهرية،لكن ذلك الانفجار لم يدع احدا من ساكني الحي كله مستغرقا في نومه.

لم يكن أوس يعرف انه سيصبح في أتون الجريمة؟ سحبته قدماه سحبا ليدخل البيت المسكون، أصبح داخل اطار الأحداث بارادته، بشيمته، بنخوته. هل كان بامكانه ان يقف متفرجا وجيرانه يذبحون بقسوة؟ هل كان عليه ان يركن الى داخل بيته دون ان يعير اي اهتمام لصراخ النساء وهن يطلبن نجدته؟ زار الليلة السابقة جاره وصديقه جمال كما هي عادة السكان في مدينتنا مع جيرانهم وتبادلا احاديث الود والاحترام المتبادل. كيف لا يهب لنجدته في الصباح وهو بحاجة اليه؟.

كان يسرد لي الأحداث بتسلسل دقيق مردداً ان صور الجنود الذين ارتكبوا الجريمة مطبوعة في ذاكرته لا تتزحزح منها وان صراخ الثكالى لا تفارق مسامعه ابداً.

****

هرولت الى نافذة المطبخ وفتحتها، سمعت أصوات الجنود الأمريكان وصراخهم فأسرعت بإغلاقها. كان واضحاً أن رتلا أمريكياً تعرض لإنفجار لغم أرضي، فكان لزاما علينا، أنا وزوجتي، أن نتوقع حملة تفتيش للبيوت القريبة، تهيأنا وترقبنا قدوم الجنود الأمريكان لتفتيش المنزل، فهم كعادتهم لا يتركون منزلا قريبا من مكان الإنفجار دون تفتيش.

السكان في حديثة عادة ما يلبسون ما يكفي عند النوم تحسبا لدخول الأمريكان منازلهم ليلا بشكل مفاجئ للتفتيش، فكيف إذا كان الإنفجار قريباً من منازلهم!.

بعد ان مر وقت طويل دون ان يصل الجنود لتفتيش البيت خيل إلينا، أنا وزوجتي، انه ربما اكتفى الجنود الامريكان بتفتيش المنازل الآخرى دون منزلنا فتشجعنا وتناولونا فطورنا وجلسنا ننتظر.

بين الفينة والآخرى كنت أنظر من نافذة المطبخ، محاولاً إستكشاف الشارع لمعرفة ما يجري بالخارج من خلال التنصت أو إستراق النظر من بعيد. مضى الوقت بطيئا والتوتر والترقب يخيم على الاجواء.

بعد أكثر من ساعتين، وعندما كنت أنظر الى الشارع من خلف الستارة شاهدت جنوداً أمريكان في طرمة بيت جاري عايد الغريري الذي يقع في الجهة المقابلة لمنزلنا. تيقنت ان التفتيش قادم لا محالة، جلست أنتظر فيما كانت زوجتي تعد الحليب لطفلينا التوأم ، واصلت

مراقبة الجنود الأمريكان في دار الحاج عايد بين وقت وآخر لإشباع فضولي ومعرفة ما قد يحدث.

شاهدتهم يسوقون جمال من داره مع زوجته وولده الى بيت والده، وبعد فترة قليلة وفي إحدى المرات شاهدت أربعة جنود أمريكان يخرجون من دار الغريري مسرعين باتجاه الوادي المقابل ويختفون.

فجأة سمعت قرعاً شديداً على باب منزلنا الخارجي وصوت إمرأة تصرخ. خرجت مسرعا فاذا هي زوجة جمال الغريري، كانت في فزع وصدمة، حالها يرثى له، يداها وملابسها ملطخة بالدماء، لا تعرف ماذا تعمل، كيف تتصرف، لكنها كانت تصرخ باستمرار:

- (لحكني أخيي ... الأمريكان قتلوا الولد كلهم)

قالت ذلك واستمرت في الصراخ والركض الى البيوت الأخرى المجاورة في الشارع.

نظرت يميناً ويساراً مستطلعا الشارع فلم أشاهد جنوداً أمريكان فيه، خرجت الى الشارع فصاح بي جارنا محمد:

- إرجع الى البيت بسرعة؟ الجنود الأمريكان على السطوح، يراقبون الشوارع.

لكني لم أهتم لقول جاري، زوجة جمال أثارت نخوتي بطلبها وهيئتها وصراخها فركضت عابراً الشارع باتجاه منزل عايد الغريري.

لمحت جندياً أمريكياً على سطح منزل عبد الجبار الراشد الذي كان قريبا جداً من موقع إنفجار اللغم، رأيته يصوب بندقيته بإتجاهي فأسرعت لأدخل البيت إلا أن رصاصة أصابتني أسفل بطني وأنا في طريقي للدخول من الباب الخارجي للمنزل، سقطت على عتبة الدار والدماء تنزف مني، تحاملت على نفسي، زحفت وبالكاد لذت خلف جدار حديقة المنزل.

زوجتي كانت تتابعني من فتحة الباب الخارجي لمنزلنا، فلما رأتني أسقط ركضت بإتجاهي غير مبالية بالخطر الذي يمكن أن تتعرض له. أطلق الجنود الأمريكان رصاصتين أخريين بإتجاهها الا أنها لم تصب. فتوارت خلف الباب الخارجي لبيت الغريري بسرعة. كانت الدماء تنزف بغزارة مني، فحملتني زوجتي بسرعه محتمية بسياج الحديقة لتلوذ خلف المنزل، ثم عادت تحملني وهي في حالة نادرة من العزيمة والقوة لم تعهدها من قبل، رفعتني الى سياج الحديقة الخلفية، تسلقت الجدار، نزلت الى الجهة الآخرى في أحد المنازل الخلفية ثم أنزلتني داخل ذلك المنزل.

عملت زوجتي وبمساعدة الجيران على إسعافي، حيث وضعوا قطعاً من القماش على مدخل الرصاصة محاولين إيقاف النزيف دون جدوى لأن الرصاصة كانت قد نفذت الى جوف البطن واحدثت جروحاً داخلية نازفه ما حدا بزوجتي، رغم مخاطرتها بحياتها، أن تعاود التردد على دارنا عدة مرات لجلب قطع قماش من منزلنا لتضميدي.

لي خمسة أبناء وكانت زوجتي قلقة من تركهم وحدهم في البيت، خاصة وان التوأمين الصغيرين لا يتجاوز عمرهما العامين، يحتاجان للرعاية ... كانا يبكيان طول الوقت، فتضطر للذهاب الى المنزل بين وقت وآخر للإطمئنان عليهما.

إنتقلنا الى بيت آخر مجاور، ربة البيت من معارفنا، مكثت هناك خمس ساعات وأنا أنزف وزوجتي ما إنفكت تضع قطع القماش على جرحي في خاصرتي دونما تعقيم أو علاج، الى أن تم حقني بحقنتين من تلك التي تعطى للنساء اثناء الولادة لمساعدتهن وإيقاف النزيف.

بقيت حتى العصر، ألبسوني ملابس نسائية، قادتني زوجتي وجارتنا الى مكان ابعد عن موقع الحادث حيث كان الرجال يتجمعون في احد الشوارع الفروعية فنقلوني الى بيت قرب الجامع. أخبر الرجال المتجمعين دكتور اياد، الذي كان يسكن في نفس الحي، لمعاينتي. جاء الطبيب فضمد جرحي وأعلمني باحتمال ان تكون إحدى كليتيي متضررة، ثم نقلتُ الى المستشفى بسيارة احد المواطنيين المتبرعين بعد ان رفع علماً أبيض على السيارة أعد من قطعة قماش بيضاء.

في المستشفى حقنوني بعدة قنان من الدم، كنت بحاجة ماسة اليها جراء النزف لفترة طويلة، ضمدوا جرحي لكن الطبيب الجراح اعتذر عن اجراء عملية لي لان ذلك يعرضه الى العقوبة او الانتقام من الأمريكان. بعد ذلك نقلني اخوتي الى بيت والدي خوفا من أن يأتي الأمريكان الى المستشفى ويعتقلوني بتهمة الأرهاب .

في اليوم التالي ذهب الى مقر القوات الأمريكية مسؤلون من مستشفى حديثة، استحصلوا موافقة لخروج سيارة الاسعاف من حديثة لنقل المرضى حيث تم ايصالي بالاسعاف الى مدينة هيت ومن هناك ذهبت أنا وزوجتي وابن عمي الى بغداد بعد ان استأجرنا سيارة تاكسي من هناك.

بقيت في بغداد لمواصلة علاجي الى أن تماثلت للشفاء.

الفصل السادس

لماذا تعتقلون زوجتي؟

نرى الوجوهَ غريباتٍ وننكرُها

من أيّ ارضِ خرابٍ موكباً وصلوا

لا يعرفونَ سوى تقتيلنا همجٌ

كمُدمنِ الخمرِ وآستشرى به الخَبلُ

فالدورُ خاليةٌ من أهلِها وبكتْ

والأجنبيّ بكلّ الأرض ينتقلُ

عادل الدرة

1

لم يكن للدم الذي اريق ذاك الصباح في حديثة مثيل في اي مكان آخر، ظلم، تعذيب،قتل جماعي، حرق للجثث، تدمير للممتلكات، مآسٍ شنيعة تقشعر لها الابدان ضد الاطفال والنساء والطلبة. هذه الفضائع لم تقتصر على العوائل التي قتلت في بيوتها، بل شملت السكان في منازل كثيرة في المنطقة بين تعذيب واعتقال واهانة.

كل البيوت، المحيطة بصعدة الحي العسكري، كانت خرساء، حزينة، موصدة الابواب، لا رائحة للحياة فيها، لا اثر يدل على ان بشرا يسكن تلك البيوت. صمت مرعب لا تقطعهُ سوى اصوات الرصاص وهدير الطائرات تحوم كأنها صقور جائعة

منزل اسامة حسن الواقع في بداية الشارع المؤدي الى المنارة لم يسلم ساكنوه ايضا. كان إسامة رجلاً مسالماً ليس لديه اي اهتمامات غير تجارية فقد كان تاجرا للمواد الغذائية يقضي وقته بين بيته ومتجره. عندما كان يتحدث لي عن يوم المجزرة شعرت ان صدره يمتلئ حزناً وهماً فيتوالى شهيقه الى ان هدأ فسحب نفساً عميقاً ونظر في الأفق البعيد ثم قال:

****

كان يوماً لا ينسى، يموت فيه الإنسان ويحيا، كان طويلاً كأنه العمر كله، كل الأيام التي عشتها بعد ذلك هبة من الله سبحانه وتعالى، حياة جديدة كتبت لي.

بدأ القلق يلازمني منذ الليلة السابقة، سرى خبر بين الجيران ان هناك أشخاصاً وضعوا عبوة ناسفة في الشارع قرب منازلنا، كلنا كنا قلقين وخائفين لكن لا احد يجرؤ على الاعتراض، البعض غادر بيته والبعض الاخر بقي على مضض. عدد من الجيران طلب بإلحاح من الأشخاص الملثمين أن يختاروا مكاناً آخر بعيداً عن المنازل لأن المكان الذي اختاروه سيعرض الأهالي للخطر والانتقام من قبل القوات الأمريكية، ولما يئسوا تراجعوا وكفوا عن الكلام معهم مخافة مما يبدر منهم.

بعد ان انتشر الخبر غادر معظم الجيران بصحبة عوائلهم الى بيوت أقارب أو أصدقاء لهم في مكان بعيد. أنا، أيضاً أخذت زوجتي وأبنائي وغادرت البيت الى بيت إختي في نفس الحي.

في المساء ذهبت (للتعليلة) في ديوان قدوري الماز كعادتنا في معظم الليالي، مر علينا هناك (بالصدفة) عدد من أفراد الحرس الوطني وعلمت منهم ان البيوت التي تجدها القوات الامريكية فارغة عند التفتيش، فأنهم يعبثون بها وينثرون أثاثها، لذا فمن الأولى لأصحاب البيوت أن يبقوا في منازلهم لأن من يترك منزله قد يشكون في أمر انتمائه للمسلحين. فقررت

حين ذاك أن آخذ زوجتي وبعض أولادي، الصغار منهم بالتحديد، واعود الى منزلي، تاركاً الآخرين يبيتون ليلتهم في بيت إختي.

كانت السابعة الا دقيقة او دقيقتين عند حدوث الإنفجار، كان الصوت قوياً. تناثرت الشظايا وأجزاء السيارة المتفجرة في الجو، سقط شئ ما منها في كراج بيتي.

تاكدنا من إغلاق كافة الستائر والشبابيك وجلسنا في الداخل دونما حركة، خاصة بعد أن شاهدنا عدداً من أفراد جنود المارينز قد صعدوا الى سطح منزل عبد الجبار المواجه لمنزلنا.

إنتظرنا دخول الأمريكان للتفتيش ولكنهم لم يأتوا، أحسسنا بالإطمئنان قليلاً، تناولنا فطورنا وجلسنا ننتظر، بعد أكثر من ساعتين سمعنا صراخ نساء، إحداهن كانت تصرخ بصوت عالٍ، تقول:

– قتلوا كل رجالنا .... لم يبق لنا والِ.

أصخنا السمع ... تبين ان الصراخ يأتي من جهة منزل عايد الغريري.

أخبرتني زوجتي انها تشم رائحة شئ يحترق، حاولنا معرفة ما يدور حولنا لكن الخوف كان يسيطر علينا. صعدتُ الى الطابق الثاني، وجدت جزءاً من زجاج شباك البيتونة مكسوراً، نظرتُ من خلاله بحذر فشاهدت دخاناً يتصاعد من بيت عبد الحميد، ثم نظرت يمينا فرأيت سيارة بيضاء واقفة جنب الرصيف، قربها خمس جثث لرجالٍ مقتولين. أصبت بالصدمة ونزلت مسرعاً.

أيقنت ان الأمريكان سيدخلون بيتي للتفتيش لا محالة، وقد يعتقلوني وربما سيقتلوني وهو الأمر المحتمل يقيناً، وحسب مزاج الجنود الأمريكان حينها .

تدارسنا الأمر أنا وزوجتي بشكل سريع ونفذنا ما قررناه، ذهبت فورا الى غرفتي التي تقع في نهاية الممر في الجهة الخلفية للبيت، نمت على السرير ووضعت جنبي عدداً من علب الأدوية التي لدينا متظاهراً إني أعاني من مرض في الكليتين، وجلس إبني الصغير قربي ممسكاً بيدي وقال لي وهو يبكي:

- (ما أخليم يقتلوك!.... ما أخليم يعتقلوك!)

أما زوجتي، فحملت إبنتي الرضيعة ووقفت عند باب الغرفة الذي تركناه مفتوحا بعد ان أقفلت لسان الكيلون دون أن أغلق الباب ثم أخرجت المفتاح من مكانه وأخفيته في مكان غير منظور في الغرفة، كنت اريد ان اطمئن بان الغرفة لا يمكن غلقها وقفلها ونحن فيها، كنت خائفاً من أن يغلقوها علينا حتى يقتلونا .

فجأة ضرب باب البيت بقوة بحيث فتح على مصراعيه بضربة واحدة ودخل الجنود الامريكان بسرعة خاطفة وبنادقهم مهيأة للرمي وبقفزتين أو ثلاث أصبحوا قربي وفوهات بنادقهم موجهة نحو رأسي، رددتُ الشهادة مع نفسي سريعاً وأنا صامت، لم أنطق ببنت شفة، تشبث إبني بي بشدة، صرخت زوجتي وهي تحمل الطفلة قائلة:

– يورك اسد ..... يورك اسد ...إنه مريض ويعاني من كليتيه، لا يستطيع الوقوف!!

هدأوا قليلا!! لا أعرف كيف نطقت زوجتي بهاتين الكلمتين باللغة الانكليزية، كان حامض اليوريك مرتفعاً عندي في فترة سابقة وليس الآن، لكن يبدو إن زوجتي لا زالت تتذكر ذلك.

فتشوا بيتي، سألوني ان كنت أملك سلاحاً، فأجابتهم زوجتي لدينا بندقية تلك هي، ذهب جندي وجلبها، كانت قديمة وينقصها الكثير، ثم طلبوا منا أن نريهم كيف يصعدون الى السطح فأشرنا الى الدرج، بعد أن أكملوا التفتيش، غادروا البيت.

لكني من خلال نظراتهم وتصرفاتهم والقتلى الذين رأيتهم في الشارع تأكد لي إنهم لن يتركونا وسيقتلونا جميعا، قررنا أنا وزوجتي أن نترك المنزل بسرعة من الباب الخلفي قبل أن يعودوا إلينا ثانية.

كان الوقت حينها الثانية بعد الظهر، خرجنا من الباب الخلفي نحن الأربعة تتقدمنا زوجتي وهي تحمل طفلتي الرضيعة وفي اليد الآخرى ترفع قطعة قماش بيضاء عملناها على شكل علم أبيض وأنا خلفها مباشرة أمشي ببطء متظاهراً بالمرض وإبني يمسك بيدي. نظرت من طرف عيني على سطح المنزل الذي على يسارنا بعد ان سمعت احدهم يضحك فرأيت جندياً امريكيا يتبول بإتجاهنا.

إتجهنا يمينا وسرنا، كانت وجهتنا الى بيت إختي في الشارع الخلفي ، رأينا سيارة همر تقف في نهاية الشارع الفرعي، وجه الجندي سلاحه باتجاهنا، سرنا صامتين مستسلمين لأقدارنا، كان الموت يحيط بنا في جميع الأحوال، علينا ان نهرب من هذا الجحيم.

وصلنا بيت إختي، فرحوا كثيراً لأنهم وجدونا على قيد الحياة، كانوا قلقين جداً علينا، أخبرونا ان أربعة من أولاد عايد الغريري قتلوا، ثم أخبرونا ان عائلة عبد الحميد قتلوا جميعا، فحزنت حزنا شديدا وإنتابني القلق والتوتر واليأس، قالت لنا إختي : دعونا الآن من كل ذلك ودعونا نعمل على إنقاذ آوس فهمي الجريح وهو ينزف في الغرفة. دخلت الى الغرفة فوجدته منهاراً، ينزف من جنبه، قال لي:

- إشتريني يا حجي أسامة إنني أموت ببطء

2

على يمين صعدة الحي العسكري تتوزع عدد من البيوت جنب وادي صغير. تقدمت اليها مجموعة من جنود المارينز، داهمتها وفتشتها واعتقلت رجالها. كان عبدالله الراشد من الذين داهمت منزله مبكرا ذلك اليوم.

رغم ان عمره الان تعدى الخامس والستين عاماً، وذو لحيه طويله بيضاء تحجز مساحة واسعه من وجهه ناصع البياض ايضا، الا انه لا

زال يرسل ضحكاته العالية وقفشاته الخفيفة كعادته، تلك الضحكة الطفولية التي تنطلق منه بين الحين والآخر لأي سبب، ضحكتة ماركة مسجلة باسمه، خفيفة، سريعة الانطلاق سريعة التوقف، تبرز خلالها أسنان قليلة تتوزع في فراغ فمه، تنكمش عيناه الزرقاوان خلال ضحكاته خلف نظاراته. تلك العينان الزرقاوان والضحكة الواسعة كانت تضفي على وجهه البشوش شخصية مختلفة.

عندما زرته في بيته، وجدته في حديقته التي تحوي أصنافاً عديدة من الورود بمختلف الألوان. تقدم أمامي ونحن نتجول في الحديقة، يصف لي وروده ويشرح مواصفات كل نوع منها بحماس،.هذه صفراء وتلك ذات لونين مختلفين وهذه من نوع البصليات وتلك زنبق عراقي والتي جنبها جوري عراقي برائحة وتلك التي في الجنب الآخر ورود هولندية بدون رائحة والتي جنبها إيطالية وهكذا. كانت الحديقة عبارة عن مشتل به كل أنواع الزهور ومزدحمة بالإصص الفخارية والبلاستيكية.

هذا الرجل الذي عرفته منذ صغره، فنان يحب الطبيعة، ويقضي معظم وقته على ضفاف الفرات، مولع بالطيور والزهور.

ولد ابو محمد ونشأ في قرية دوالي اليهود القريبة جداً الى قرية الميلان التي ولدت ونشأت فيها، لا تفصل بينهما سوى قرية التال. كان مغرماً بصيد السمك منذ صغره . ينصب سنارته كل ليلة ليعود

اليها في صباح اليوم التالي لإخراج صيده. والهواية الآخرى التي كان يعشقها ويكاد ينفرد بها هي صيد وتربية البلابل المغردة ذات الاصوت الشجية.

جلسنا معا في حديقته بين الورود وبدأ يتحدث لي:

****

عبدالله الرشد

العراق مثل حديقتي هذه كله ورود جميلة مختلفة الألوان والأصناف، لكن مع الاسف الأعداء فرقوا تلك الورود وزرعوا معها الضغينة والفرقة، لكنه سيبقى مثل حديقتي.

عندما فرض الحصار على حديثة وقطعت عنها كل مصادر الحياة، لم تهتز وبقيت صامدة. ورغم إنقطاع الكهرباء الا ان الساعات القليلة التي كان يتم خلالها ضخ الماء في الليل كنت أسهر فيها لسقي حديقتي فبقت حية،صامدة هي الاخرى .

في اليوم الذي حدث به الإنفجار، كنت أتوقع أن أسمع من الجنود الأمريكان كلاماً بذيئاً أو ربما يعتقلوني غير اني لم اكن اتوقع انهم سيضربوني بهذه القسوة وانا الرجل الكبير في السن.

عندما دخلوا بيتي كنت في الحمام، لم ينتظروني حتى أخرج!

دفعوا الباب واخرجوني.

إعتقلوني ، واعتقلوا زوج إبنتي، حيث كان في بيتنا. أخذونا الى الشارع في مكان الانفجار، سحبونا بقوة وضربونا بعنف كانوا يضربوني وانا أصرخ من الألم.

– لماذا تضربوني؟ أنا لا أستطيع ان أؤذي طيراً مالي ولكم .

اخذوا معنا أولاد عمي حميد، الذين يجاورونا في السكن. قيدونا ورمونا على الشارع ، حققوا معنا وضربونا، بقينا كل النهار هناك على الشارع، مقيدين وخائفين ، ثم جلبوا معنا يوسف الذي قتلوا أربعة من إخوته، كان يوماً طويلاً من العذاب والإهانات والخوف .

في الليل إنسحبت القوات الامريكية من المكان. اطلقوا سراحي ونقلوا الباقين الى قواعدهم العسكرية، فهمت إنهم أطلقوا سراحي لأني كبير السن، قالوا لي:

– لا تتحرك من مكانك الى أن تغادر كل عجلاتنا وإلا فإننا نطلق عليك الرصاص.

نهضت بعد أن غادروا، كنت منهكاً، ومحطماً من الإرهاق والتعب والتعذيب. لم أذهب الى بيتي، أعرف إن المنطقة كلها أصبحت مراقبة، ينتشر بها الجنود الأمريكان، وتحفها المخاطر من كل الجهات. كنت أريد ان أرى أمي لأشكرها، لأن دعواتها هي ما كانت تحفظني من المخاطر. ذهبت بإتجاه النهر الى بيت والدي القديم،وهل شعرت بالأمان يوماً في غير ذلك البيت؟ بيت ينام تحت ظلال الاشجار ، اريد

ان أنام تحت شجرة التوت وارتوي من الساقية المحاذية لبيتنا، وقفت على جرف النهر ارقب النواعير، انشج على أنينها.

3

كثر النازحون هذه الايام، تعددت بلدانهم، اما وجهتهم فالى بلدان الأمان والدولار، اصبحوا كالطيور المهاجرة، تهاجر اسرابا الى مصادر الدفء والغذاء. يجتازون الغابات والجبال، يعبرون البحار، يغرقون فيها، لكنهم في ازدياد. في السنين السابقة لم نكن نسمع ان هناك نازحين غير الفلسطينيين. كلما تحتل اسرائيل مدناً جديدة من فلسطين ينزح اهلها، تشردوا في كل بقاع الارض كما يتشرد الان العراقيون والسوريون والليبيون واليمنيون. وصلت حديثة عائلتان من نازحي فلسطين بعد نكبة 1948 . احداهما هي عائلة محمود الدوار الذي بنى بيتا على طرف الوادي القريب من صعدة الحي العسكري، كبر ابناءه وتزوجوا واصبحوا جزءاً من مدينة حديثة.

مهند احد ابناءه، شاب رياضي مفتول العضلات. عانى ووالده واخوته كثيراً من قوات المارنز في ذلك الصباح الخريفي المشؤوم.

****

مهند محمود

أمضيت اليوم السابق للحادث في بيتي الذي كان في مرحلة التشييد ، أقف مع العمال وأوفر لهم ما يحتاجون من مواد. العمل يومها كان

يتضمن القيام بتبييض جدران البيت الداخلية وعمل التأسيسات المائية. كان بيتي محاذياً لبيت والدي من الخلف، يقع على سفح الوادي الذي يشرف على صعدة الحي العسكري ، يفصله عن الشارع مساحة خالية لم يكن حينها قد شيد أي بيت عليها. في الظهيرة فرشت (دوشك)على الارض في الصالون وجلست مع العمال تناولنا غدائنا وشربنا الشاي. عند العصر بدأ العمال بعمل التأسيسات المائية وإكمال بعض النواقص الآخرى واستمروا حتى بعد مغيب الشمس.

في صباح اليوم التالي إستيقظت فزعا على صوت الإنفجار. صعدت الى السطح الذي كانت ستارته مرتفعة، أخفيت نفسي خلفها، ورفعت رأسي حذراً ونظرت الى الشارع حيث مكان الانفجار، فشاهدت الجنود الأمريكان في هرج كبير وبقايا عجلة متحطمة ومدمرة فاسرعت بالنزول من السطح. أيقظت زوجتي وأهلي جميعا وطلبت منهم لبس ملابسهم كاملة إستعداداً للتفتيش، كان ذلك متوقعا طالما حدث إنفجار في حينا قريب إلينا .

دخل الجنود الأمريكان بيتنا وهم يصوبون بنادقهم اتجاهنا، كانوا على أهبة الأستعداد للرمي، قيدوا يدي خلف ظهري وكذا فعلوا مع والدي وإخوتي ورمونا في (الطرمة). جمعوا نساءنا وأضافوا لهم النساء من بيت جارنا ، وضعوهن جميعا في صالة المعيشة وأغلقوا عليهن الباب. ظلَّ الجنود يراقبون أي حركة منا أو من النساء، إستخدموا العنف والقسوة معنا، عذبونا بشكل لا يطاق، بقينا هكذا منذ الصباح الباكر وحتى المغرب.

ضربوا أخي علي ضرباً مبرحاً، كان علي لا يتحمل القيد ويداه خلف ظهره، وعندما يشكو أو يتكلم يضربونه بقسوة. كان هناك جندي اسود ضخم من ضمن الذين يراقبونا، كان يأتي راكضاً ويضرب أخي علي بقدمه على بطنه، فيصرخ من الألم ويتدحرج الى الجهة الاخرى ثم يذهب هذا الجندي الى الجهة المعاكسة، ويأتي راكضاً مرة آخرى ويضربه بقدمه بقوة على بطنه أو صدره، وكرر ذلك مرات عدة.

في إحدى المرات طلبت من علي أن يصبر ويرخي جسده حتى يقاوم القيود، فوبخني الجندي الأمريكي بقسوة، لأنني تكلمت، وسحبني على الارض حتى قرب رأسي من جدار حجري خشن فضرب رأسي بقسوة على الحائط، فسالت الدماء على وجهي.

أبي أيضا ضربوه بقسوة أمامنا، فعندما كان يعترض على ضرب ابنائه، يضربونه على صدره بأرجلهم وهو الرجل المسن، لقد آذوه، إنهم غزاة مجرمون، وحوش كاسرة .

كنت رياضيا معروفا في حديثة وضمن فرق كرة الطائرة والسلة والقدم وأمارس رياضة رفع الأثقال أيضاً، لذا فإن عضلات جسمي كانت بارزة، فقاموا برفع الأثقال التي كانت في حديقتنا وأسقطوها عليَّ عدة مرات.

قبل أن يدخل الجنود الأمريكان منزلنا، طلبتُ من زوجتي أن تضع ذهبها ونقودنا في حقيبتها اليدويه وتحملها تحت عباءتها كي لا

يسرقوها، لكنهم عند التفتيش أخذوها من زوجتي، ووضعوا الذهب والنقود أمامنا في الطرمة ووضعوا معهما جهاز هاتف وأسلاك والتقطوا صورا لنا مع هذه المواد ليوهموا مراجعهم والرأي العام بأن هؤلاء إرهابيون ومعهم أدوات الإرهاب، خلال ذلك اليوم بعثروا أثاث بيتنا ونثروا ملابسنا على الارض، وعبثوا بأشيائنا ولم يتركوا شيئا في مكانه

عندما علموا، خلال التحقيق معي، ان البيت الجديد على أطراف الوادي هو بيتي إدعوا أنني ربما كنت أجلس فيه لكي أراقب القوات الامريكية، وربما كنت مستريحا على الفراش أنتظرهم، وفجرت اللغم من هناك، كانوا سيقتلونا جميعا، غير ان الذي أنقذنا هو أنهم وجدوا تحت سرير والدي جوازاتنا الاردنية، فنحن فلسطينيون من رام الله، هجر والدي من بلده عام 1948م فكانت وجهته الى العراق. سمعت الجندي الامريكي يتصل برؤسائه ويقول لهم أنهم يحملون جوازات سفر اردنية (جوردن باسبورت)، لهذا السبب قرروا ان يعتقلونا عوضا عن قتلنا وبقينا محجوزين في البيت.

عند المغرب اقتادونا، أنا ووالدي وإخوتي، الى السيارة العسكرية التي كانت تقف في الشارع الفرعي، كان فيها عدد من المعتقلين من البيوت المجاورة، فوجئت عندما وجدت زوجتي معتقلة أيضا، جن جنوني وفقدت أعصابي، صرخت بهم :

- لماذا زوجتي؟ أنا هنا معكم لماذا تعتقلون زوجتي؟

كنت أصرخ دون وعي، خفت كثيرا على زوجتي، احطتها بساقيَّ ويداي مقيدتان خلف ظهري، قلت لها :

– رددي الشهادة معي، لن أدع أحداً يأخذك مني حتى لو قتلونا معاً، لنمت هنا خيرٌ لنا من أن يعتقلك هؤلاء الوحوش.

نقلونا الى مقر القوات الأمريكية الذي كان موجودا في بناية مديرية التربية القديمة. عندما نزلنا من السيارة، حاول أحد جنود المارينز سحب زوجتي وهي ممسكة بي، هجمت عليه وضربته بقدمي فرجع الى الخلف وصوب سلاحه نحوي، صرخ به المترجم وكان عربي الأصل:

– إنها زوجته ولن يدعك تلمسها حتى لو قتلته!

رفضت ترك زوجتي، كنت أصرخ بهم وزوجتي كانت خائفة وتبكي، جاء الضابط الامريكي وقال لي:

– لا تقلق، سندع زوجتك تعود الى البيت، سيأتي القائمقام حالا وتعود معه.

لم أتركها حتى رأيت القائمقام قادماً فاستلمها، ثم جاء زوج إختي وعاد بها الى البيت.

في اليوم التالي اطلقوا سراح معظم المعتقلين، أما أنا ووالدي فنقلونا الى مقر آخر للقوات الامريكية ثم نقلونا مرة أخرى بطائرة مروحية الى مقر آخر، بقينا اسبوعا كاملا في محاجر ضيقة وسجون إنفرادية لا

تتجاوز المتر الواحد عرضاً وطولاً، ومع ذلك كانوا يقيدون أيدينا فيها. خلال ذلك الإسبوع كانوا يأخذونا للتحقيق كل يوم. بقي والدي في سجن (ابو غريب) مع السجناء العرب باعتباره اردنيا لأنه كان يحمل جواز سفر اردني في حين نقلوني الى سجن بوكا مع العراقيين لأنني ولدت في العراق.

بقيت في السجن ثمانية أشهر ثم أطلقوا سراحي بعد ذلك، سرقوا من عمري وصحتي الكثير لإتهامات وشكوك مجحفة وكاذبة وغير صحيحة. خرجت من السجن لأجد زوجتي وقد أصيبت بالسكري وإرتفاع الضغط اللذين لازماها حتى الآن، تركنا الأمريكان بعد أن أتلفوا صحتنا وسرقوا أموالنا ومصاغ زوجتي.

حتى بعد خروجي من السجن لم أسلم منهم او آمن شرهم، فبعد فترة قصيرة عادوا لمداهمة بيتنا. إستيقظت في إحدى الليالي فزعاً لأجد جنديا أمريكيا موجهاً سلاحه الى رأسي، دخلوا الى غرفة نومي، فتشوا بيتنا وتركونا، عند ذلك قررت ان آخذ زوجتي وأترك البلد، سافرت الى الاردن وحصلت على وظيفة مدرس في المدارس الإردنية، أعيش الآن مع إسرتي في الاردن.

الفصل السابع

الفضيحة الكبيرة

لا يوجد في العالم أسمى من دفع الآلام عن
انسان
لايستطيع التعبير عن ألمه.

يوسف زيدان

1

سقطت عجلة سيارة الهمر التي تعرضت للإنفجار قريباً من منزل محمد.

عجلة كاملة باطارها و(ويلها) ارتطمت بقوة بالارض، خرج محمد من باب البيت الخلفي المواجه لمسرح الحادث، وقف أمام الباب وبدأ يراقب القوات الأمريكية، كان يستطيع رؤية الرتل الامريكي من مكانه، فقد كان بيته على قمة تل في نهاية الوادي المؤدي الى (صعدة) الحي العسكري، فكر أن يصور ويسجل فديوات للحادث، كان محمد إعلامياً وعضواً في منظمة لحقوق الانسان، نهرته والدته، فعاد الى داخل البيت مسرعاً.

كانت في بيت محمد غرفة على السطح فيها نافذتان تشرف إحداهما على الوادي اما الثانية فتشرف على الشارع الفرعي المؤدي الى المنارة. صعد الى السطح، ومن الغرفة هناك أخذ يراقب القوات الامريكية. سمع لعلعة الرصاص، صراخاً يتصاعد من هنا وهناك، نساء ثكالى يصرخن بلوعة من بيت الغريري، جنود مدججون بالسلاح يتقافزون ويصرخون. أخذ يراقب ويصور المشاهد، حركات الجنود، اقتحام المنازل، احتراق منزل عبد الحميد وتصاعد الدخان منه.

أقبل الجنود الأمريكان من الوادي، الشرر يتطاير من عيونهم، أمر محمد إخوته أن يهربوا من البيت قبل أن يصلوا، فروا من الباب الامامي الذي كان في الجهة الخلفية بالنسبة لمسرح الأحداث، تسللوا بين البيوت ونزلوا الى الشارع العام، عبروه مسرعين بإتجاه النهر. بقي محمد والنساء من عائلته في البيت فقط.

في صباح اليوم التالي للجريمة، كان أهالي حديثة يتسابقون للوصول الى المستشفى بعد أن ذاع خبر وجود قتلى مدنيين فيها، من ضمن الذين وصلوا الى المستشفى، محمد، الشاب الذي كان عضوا في الهيئة الادارية لمنظمة حمورابي لحقوق الانسان التي مقرها في بغداد والذي صادف أن كان مجازا وموجوداً في حديثة ذلك اليوم لزيارة أهله.

قام بتصوير جثث القتلى، نساء في ملابس المنزل، أطفال صغار مقطعة أوصالهم، رجال محروقة أجسادهم، مشاهد أظهرت بجلاء وحشية وبشاعة القوات الغازية والأسلوب البشع في قتلهم للمدنيين وصور المآسي والحزن الظاهرة على أقاربهم وذويهم.

2

كان وقع المجزرة على سكان مدينة حديثة شديداً، فمقتل اربعة وعشرين شخصاً مدنياً في يوم واحد حدث جلل في مدينة لا يتجاوز عدد سكانها مائة الف نسمة.

اعداد غفيرة من اهالي حديثة شاركت في مواكب واسعة لتشييع الضحايا. كان المجتمع حينها ناقماً على المحتلين الأمريكان الذين لم يجلبوا معهم غير الخراب والقتل وإنفلات الأمن. لقد أشاعوا الفوضى والظلم والغدر، وبرعوا في زرع الفتن بين أبناء الشعب وتعهدوها لتترعرع وتنمو في ظل توجهاتهم وأساليبهم وتعاملهم مع الشعب، والأكثر من ذلك انهم حرصوا على خلق كل ما من شأنه اثارة الفتن وبعث الضغائن وتمكين ضعاف النفوس من التحكم برقاب الناس، فأصبح المواطن المستقيم ضعيفاً لا ناصر له ولا شفيع، تتحكم به العصابات والقوى المسلحة، دون أن يستطيع الوقوف ضدها أو مقاومتها أو حتى الإعتراض عليها.

ونتيجة للغليان الاجتماعي والغضب العارم الذي إجتاح المجتمع على هذه الجريمة، عقد شيوخ وأعيان ووجهاء المدينة ومدراء الدوائر إجتماعاً في مكتبة حديثة العامة، ناقشوا فيه الجريمة وأسبابها والمسؤلين عنها وكيفية الرد عليها، وقرروا مقابلة مسؤول القوات الأمريكية في المدينة وأخباره بالحقائق كاملة عن تفاصيل الجريمة والأساليب الوحشية التي إقترفها جنوده ومطالبته بالقصاص من المجرمين .

قدم الوفد طلبا للقوات الأمريكية لتحديد موعد للقاء قائد موقع حديثة العسكري للتباحث في حيثيات هذه الجريمة البشعة، وحصلت الموافقة على ذلك.

قبل موعد الاجتماع كتب الوفد عريضة ذكروا فيها تفاصيل الجريمة ومطالب أهالي المدينة وذوي الضحايا وتمت ترجمتها الى اللغة الانكليزية لغرض اعتمادها في الإجتماع وتقديمها الى القائد الأمريكي.

حضر الاجتماع من الجانب الامريكي كل من قائد الكتيبة المرابطة في حديثة والمسؤول الأمني ومسؤول الشؤن المدنية .

وكان محور الإجتماع أن أهالي حديثة يعتبرون ما جرى من قتل للمدنيين وبهذه الوحشية جريمة حرب.

قدم الوفد العريضة الى القائد الأمريكي، التي تضمنت شرحاً مختصراً عما جرى بالمدينة من قبل القوات الامريكية منذ دخولها ومحاصرتها المدينة قبل أكثر من شهر ونصف، من مداهمات وتفتيش للبيوت وتقييد للحركة وتعطيل للمدارس، حتى ان بعضها أصبح مقراً للقوات الامريكية، وتضمنت تفاصيل ما جرى صبيحة يوم التاسع عشر من ذلك الشهر من جريمة بشعة بحق المدنيين، وطالب الوفد بمعاقبة الفاعلين وإعطاء ضمانات بعدم تكرار هذه الكارثة. كما طالبوا بالسماح لإعادة الحياة الى المدينة المحاصرة وتوفير المواد الأساسية لأهاليها وشددوا على وجوب الكف عن اعتقال النساء او ترويعهن تحت اي ظرف ولاي سبب وعدم دخول المنازل ليلا والمبيت فيها او اخراج العوائل من البيوت لاستغلالها كمقرات لاقامة القوات الأمريكية.

كان القادة الأمريكان يراوغون بالنقاش وحاولوا إضفاء الشرعية على جرائم القتل التي اقترفتها قواتهم باعتبار ذلك دفاعاً عن النفس،

لكن إصرار الوفد وجديته إضطرت القائد الأمريكي الى القول بانه سوف يرفع القضية الى القيادة العليا لغرض محاسبة المذنبين والقتلة .

ورغم ان المجلس المحلي للمدينة ووفد الشيوخ والأعيان اعتبر المجزرة جريمة حرب وان المارينز قتلوا مدنيين في تلك المجزرة غير ان قيادة القوات الامريكية لم تهتم بما يطالب به اهالي حديثة ولم يتم فتح تحقيق حتى ذلك الوقت ما حمل الجنود على الظن ان المجزرة التي أرتكبوها أصبحت من الماضي، وان الأجتماع بات يتحدث عما يمكن ان يتم عمله بعد ذلك، فالحادث قد وقع وانتهى كل شئ، فما هي الأمور التي يمكن ان تعمل لتجنب تكرار ذلك؟

إنتهى اللقاء بوعود من القائد بانه سيتم رفع تقرير الى القيادة العليا.

لم يرضَ أهالي حديثة بالنتائج التي آل اليها الاجتماع وخاصة ان هناك شخصا صور فيديو يظهر فيه الجنود الأمريكان وهم يقومون بعملية اقتحام المنازل بعد الهجوم وكان يبدو ان هذا الشخص مصمم على فضح هذه المجزرة أمام العالم أجمع.

3

عندما ذهب محمد الى بغداد سلم الفديوات التي جمعها الى أحد مؤسسي منظمة حمورابي لحقوق الانسان الذي حاول بدوره إيصالها الى وسائل الاعلام العربية الا أن أحداً لم يهتم بالأمر، فاوصلها أخيراً الى (ت. م.) مراسل مجلة تايم في بغداد.

شاهد (ت. م.) الفديو، لكنه بدايةً لم يصدق المشاهد الموجودة فيه، ظن إنها من إحدى المجازرالعديدة التي كانت تحدث في العراق لأسباب شتى، ربما تفجير إرهابي أو قتل طائفي، غير إن منظمة حمورابي أخبرته ان إحدى وحدات المارينز التي كانت تعمل في حديثه هي التي قامت بتلك المجازر، فوجئ، راح يبحث على محرك البحث كوكل عن ما جرى يوم 11/ 19/ 2005 فوجد (ت. م.) البيان الصحفي الذي أصدرته قوات المارينز بتاريخ 2005/ 11/ 20 الذي جاء فيه ان مدنيين قتلوا نتيجة لإنفجاربقنبلة كانت مزروعة على جانب الطريق.

فكر بالأمر كثيراً وتذكر إموراً عدة، فكر بملابس النساء والأطفال الضحايا، كانوا يلبسون ملابس نوم تقليدية، لم يصدق البيان، فكيف يمكن ذلك بمجتمع تقليدي محافظ مثل مجتمع العراق؟! فالناس هنا لا يخرجون بملابس النوم الى الشوارع ... وهؤلاء جميعا ماتوا بملابس النوم!.

تساءل (ت. م.) ان كانت قوات الاحتلال تحاول إخفاء جريمة قتل مدنيين عمدا من قبل الجنود؟! .بعث برسالة الكترونيه الى المسؤول الإعلامي لقوات المارنز في حديثة يسألهم، لماذا لم يتمكن جنود القوات الأمريكية ان يفرقوا بين الإرهابيين والنساء والأطفال ومن مسافة قريبة وفي وضح النهار؟

هل جرى أي تحقيق في سبب مقتل المدنيين؟؟ هل وجهت إتهامات رسميه الى الجنود؟؟

لم يصدق الضابط الذي أجاب على الرسالة، القصة وقال:

(بصراحة لا اصدق إنك صدقت هذه القصة لأنها جزء من حملة تنظيم القاعدة في العراق.)

لكن (ت. م.) أخبرهم بأنه عمل مع منظمة حمورابي سابقاً ولم يجد ان هناك سبباً يجعلهم يعملون مع المتمردين، فهم أناس يدافعون عن حقوق الانسان في العراق.

استمر (ت. م.) بالتحاور معهم، عرضت قوات المارينز عليه المجيء الى حديثه للاستماع الى الجنود، لكنه رفض العرض وأخبرهم ان رئيس التحرير يشعر ان هناك خطراً في ذهابه الى حديثه.

لكن اسئلته ومتابعته اتت ثمارها بعد أن تزايدت جهات الرفض للتقرير الصحفي، وانطلقت تحقيقات حول الحادثة، حيث تشكلت لجنة للتحقيق بالقضية.

بعد أن بدأت لجنة التحقيق الجنائية في مشاة البحرية عملها حول القضية، نشرت مجلة التايم موضوعاً عن المجزرة استناداً لما جاء في قصة (ت. م.) عنها، نشرتها في الصفحات الداخلية، في الصفحة الرابعة والثلاثين محاولة صرف إهتمام وسائل الأعلام بالموضوع،لم

تلفت القصة إهتمام الرأي العام بسبب وقوع أحداثها في العراق وعدم نشرها في وسائل الإعلام بكثرة.

في حزيران عام 2006 أعادت التايمز نشر القصة، نشرتها هذه المرة على الصفحة الأولى بعدما إفتضح أمر المجزرة أمام الرأي العام، فقد أصبحت القضية قضية سياسية.

تصدرت حديثة الاخبار لعدة أسابيع، أصبحت القضية فضيحة كبيرة، فضحت إدعـاء أمريكا إن سبب غزوهم للعراق هو نشر الديموقراطية.

بعد عدة أشهر، ظهر عضو الكونكرس الأمريكي جون مارتا، وهو معارض شرس للحرب في العراق، مفصحاً عن معلومات من مصادر عسكرية لم يذكر مصدرها، موجهاً فيها إتهاما فاضحا للجيش الأمريكي وذلك خلال مؤتمر صحفي قال فيه:

(ان الحقيقة أسوأ مما ذكرته التايم، فلم يكن هناك أي تبادل للنار! ولم تكن أية عبوة ناسفه قتلت الأبرياء المدنيين! لقد كان رد فعل الجنود مبالغاً فيه وقتلوا المدنيين الأبرياء بدم بارد!.

كان عضو الكونغرس يحاول ان يستخدم الضغوط لإعادة الجنود الى وطنهم والذي كان هو يدعو له إلا أن تصريحاته أزعجت جنود وحدة المارينز، فهم لا يريدون تذكر جريمتهم.

أصبح للقضية إهتمام كبير في اوساط الرأي العام لان عضو كونغرس (وهو من المارينز سابقاً) قال ان القضية برمتها هي قتل مدنيين بدم بارد.

الفصل الثامن

ليلة القبض على الضحية

ما أشد برائتنا حين نظن أن القانون وعاء
للعدل والحق، القانون هنا وعاء لرغبة الحاكم
أو بدلة يفصلها على قياسه

محمود درويش

1

جفت دماء الضحايا،إحتضنت مقابر حديثة أجسادهم البريئة، تجمعوا فيها بأشلائهم الممزقة وارواحهم الطاهرة، الأم احتضنت ابناءها والأب إحتضن ولده وناموا في قبور مشتركة، لكن لا زالت رائحة البخور تفوح عند قبورهم في مساءات الوداع الحزينة لتشكل سحابة شوق لهم .

آلام الجرحى وبكاء الارامل والامهات ومعاناة الايتام لم تتوقف.

كان جنود المارنز قد نسوا ما ارتكبوه وظنوا ان جريمتهم طويت في متاهات الحرب الظالمة.

لكن ارواح الشهداء لا زالت تطارد السفاحين حيثما حلوا.

بدأت القوات الامريكية التحقيق في المجزرة في شباط فبراير 2006

ولم يكن ليتحقق ذلك لولا افتضاح امر الجريمة وانتشارها بشكل واسع عبر وسائل الاعلام.

إبتدأت التحقيقات الأولية في مدينة حديثة، مسرح الجريمة، حيث كانت المجموعة الاولى من الكتيبة الثالثة لقوات المارينز. تشكل فريق

الإدعاء من محامي قوات المارينز لمحاكمة المتهمين حيث استدعوا الشهود الى بناية البلدية،التي كانت قاعدة للقوات الأمريكية.

حضر الذين شهدوا المجزرة وكانوا جزءا منها ومعظمهم نساء واطفال، ام وأب الاخوة الشهداء من عائلة الغريري وزوجاتهم وزوجة رشيد والأطفال خالد، صفا، ايمان، وعبد الرحمن، كما حضر المحامي خالد سلمان والدكتور وليد مدير المستشفى والطبيب الجراح اياد والمعاون الطبي جميل وهم الذين فحصوا الجثث وكتبوا التقرير الطبي، الذي أكدوا فيه ان القتل كان بطريقة بشعة، ومعظم الاصابات كانت رصاصات استهدفت الرأس او الصدر ومن مسافات قريبة، تؤكد النية للاقدام على هذه الفعلة الشنيعة دون ايما تهديد كما ادعى جنود المارينز.

لم تعتمد المحكمة التقرير الطبي الذي اعد من قبل مستشفى حديثة، وطلبت من ذوي الشهداء الموافقة على فتح القبور واخراج الجثث لفحصها من قبلهم واعداد تقرير طبي جديد لعلمهم ان طلبهم هذا سيرفض بل سيقابل بالشجب والاستنكار بمقتضى الاعراف الاجتماعية في حديثة.

تكررت لقاءات لجان التحقيق مع الشهود وذوي الضحايا، كانت أغلبها تجري في غرفة الدكتور وليد مدير مستشفى حديثة، وبطلب من عوائل الضحايا الذين كانوا يفضلون اللقاء في المستشفى، كونها مكانا أكثر أمناً من مقرات القوات الامريكية، وتفادياً للتهديدات التي يتعرض لها الذين يلتقون بالأمريكان.

في إحدى اللقاءات طلبت القوات الأمريكية من الشهود وذوي الضحايا الذهاب الى الولايات المتحدة الأمريكية للإدلاء بشهاداتهم امام المحكمة. رفض الجميع الذهاب الى الولايات المتحدة كما رفض الاطباء واعضاء لجنة اعداد تقرير الفحص الطبي ورفض المحامي خالد سلمان وهو من ذوي الشهداء واقاربهم خوفا من المسلحين.

تكررت الطلبات من قبل القوات الأمريكية وتكرر الرفض أيضا، الى ان أصبح الوضع الأمني أفضل بعد تشكيل قوات الشرطة وإنحسار سطوة المسلحين، فوافق الاطباء والمضمد الخفر على الذهاب الى الولايات المتحدة وحضور المحكمة والإدلاء بشهاداتهم فيما رفض ذوو الشهداء ومحاموهم.

اجريت التحقيقات والمحاكمة في قاعدة بندلتون جنوب كالفورنيا قرب سان دييغو...حيث المقر الدائم لوحدة كيلو كومباني إذ تعتبر تلك القاعدة من أكبر قواعد قوات المارينز الامريكية. وتم تخصيص أكثر من خمسة وستين شخصاً للتحقيق بالقضية، ويعتبر التحقيق فيها من أوسع التحقيقات التي أجريت خلال فترة غزو العراق واحتلاله من قبل الأمريكان.

الحكومة العراقية من جانبها قدمت ملفا كاملا عن المجزرة وطالبت بحقها بالإشراف على التحقيق منعا لتمييع القضية الا ان الولايات المتحدة رفضت الطلب.

2

اتهم كل من الرقيب مارك جوزيف والعريف دونالد كلايتون بقتل خمسة رجال مدنيين عراقيين عزل خرجوا من السيارة البيضاء ،وهم الطلبة الذين صادف مرور سيارتهم بمكان الحادث في طريقهم الى كلياتهم فادعى هذان الجنديان ان الطلبة هؤلاء حاولوا الفرار. وقال محامي الرقيب مارك جوزيف إنه حسب قواعد الاشتباك المطبقة فان الرجال الذين يفرون من موقع إنفجار عبوه ناسفه يعدون متمردين ويواجَهون على أنهم يشكلون تهديداً.

ولكن الجنود العراقيين الذين كانوا حينها في الموقع معية القوات الأمريكية قالوا ان جنود الاحتلال أطلقوا النار على الشهداء المدنيين بعد جمعهم واجبارهم على الركوع.

وقبل انطلاق جلسات الاستماع بدل العريف دونالد كلايتون أقواله بعدما عقد صفقة مع الإدعاء العام يحضى بمقتضاها بالحصانة مقابل أن يشهد معهم مما اغضب رفاقه لإفتضاح أمرهم. أدلى دونالد كلايتون بإفادته فقال: ان جوزيف أطلق النار على الرجال فيما كانوا راكعين في أماكنهم مؤكداً ان الرجال لم يفروا، بل ان بعضهم كان يرفع يديه واستدرك بالقول: احدهم على الاقل كان يرفع يديه، ثم أكد انه رأى الرقيب جوزيف منحنيا يطلق النار عليهم.

وفي محاولة أخرى للتضليل والتغطية على الجريمة إدعى الخبراء الجنائيون وجود صور وفيديو التقطتها طائرة بلا طيار تؤكد وجود مطلق نار عقب حدوث الإنفجار.

وقال محامي الدفاع عن الرقيب جوزيف: ان جوزيف له الحق أن يشتبه بالسيارة البيضاء خاصة وإن الجنود المارينز كانوا قد تلقوا معلومات إستخباراتية تشير الى نشاط للمسلحين في مدينة حديثة وانه يجب عليهم أن يتنبهوا الى سيارة بيضاء تحمل عدداً من المتمردين المعروفين بنشاطهم في المنطقة.

غير إنه اتضح بالدليل الملموس ان قتلى السيارة لا يحملون أي أسلحة ولا أية متفجرات وأن جوزيف أطلق النار من دون أن يستفزه أحد من ركاب السيارة وهو أمر يخالف قواعد الاشتباك.

3

بعد ذلك حول ضابط التحقيق إهتمامه الى منزلي عبد الحميد ويونس حيث تم ابادة الأطفال والنساء. المحكمة من جانبها تساءلت: فيما اذا كان يحق للجنود الأمريكان ان يشعروا بالتهديد عندما كانوا داخل هذين المنزلين؟ وهل انهم قاموا بما يجب عليهم وطبقوا قواعد الاشتباك؟

قال الادعاء العام ان جنود المارينز خالفوا قواعد الإشتباك لعدم التثبت من الأهداف قبل اللجوء الى القوة القاتلة مضيفا انه ما كان يجب إعتبار المنزل تهديدا، ولم يقوموا بما يجب القيام به.

يقول قائد الفرقة ان نيته كقائد للفرقة هي تطهير هذه المنازل ويترك للرقيب مهمة أداء عمله دون ان يحدد له ما عليه القيام به، هذه هي أوامر (النية) كما يسميها المارينز، وادعى المارينز انهم دخلوا المنازل (ضمن قواعد الإشتباك واعتبروها تهديداً) بهدف القضاء على كل من فيها لأنهم يشكلون تهديداً لهم. غير ان وجود أطفال ونساء بين القتلى وعدم العثور على أسلحة في المنازل دفع المحققين الى التساؤل، هل كان جنود المارينز أكثر عنفا مما هو ضروري؟ وهل كانوا ينتقمون لمقتل عنصر من وحدتهم؟

تم تركيز الحديث في جلسات الاستماع الى منزل يونس إذ شكل فضيحه غيرمسبوقة للقتلة،فقد إدعى جنود المارينز إنهم واصلوا التقدم نحو ذلك المنزل وهم يلاحقون متمرداً محتملا! فهل كان استخدام العنف مبرراً؟

لم يكن هناك ما يستوجب إستخدام العنف لتطهير المنزل، فقد كان مضاءً بما يكفي للتعرف على النساء والأطفال قبل إطلاق النار عليهم وقتلهم.

اتهم كل من العريف أول كينيث دانيال والرقيب مارك جوزيف بالقتل غير العمد للمدنيين الأبرياء وخاصة منهم النساء والأطفال. لكن هذين الجنديين ادعيا انهما لم يريا النساء والأطفال في منزل يونس سالم قبل قتلهم.

لكن الدليل على زيف ادعائهما هذا هو ما سبق وشاهداه من نساءٍ واطفال في منزل عبد الحميد قبل الإنتقال الى منزل يونس، مع ذلك أصر فريق الدفاع على أن جوزيف وجنوده طهروا منزل يونس حسب قواعد الإشتباك.

4

بعد التحقيق في جريمة مقتل اولاد عايد الغريري، اتهم العريف الأول ديفد بنيامين من قبل ضابط التحقيق بثلاث حالات قتل غير متعمد، رغم ان الظروف لم تكن حينها تستدعي من الجنود الأمريكيين، اللجوء الى القوة القاتلة كما فعلوا، كما ان أفعال ديفد بنيامين لم تكن متناسبة مع قواعد الاشتباك في مثل تلك الحالة.

وكان العريف الأول ديفد بنيامين قد لفق قصة قال فيها انهم وبعد تفتيش أكثر من ثلاثة منازل عقب انفجار العبوة الناسفة، ذهبوا الى منزل جمال الغريري،لكنهم لم يجدوا سوى النساء والأطفال، فسألوهم باللغة العربية ان كان ثمة أسلحة بحوزتهم وأين الرجال؟

فادعى بنيامين ان النساء قلن لهم بأن الرجال في ذلك المنزل الذي هو منزل عايد الغريري. وذكر العريف بنيامين رواية ملفقة، قال فيها انه كانت ثمة غرفة أمامه بابها مفتوح، ورأى عراقيا يحمل رشاشاً موجهاً نحوه، فرفع سلاحه الأتوماتيكي ولكن رشاشته لم تطلق النار عندما ضغط على

الزناد!! (لتبرير استعماله المسدس) فتراجع وإحتمى خلف الحائط، أخذ مسدسه التسعة ملمترات الذي يحمله طوال الوقت وأطلق النار عليه فقتله، ثم يستمر في روايته الملفقة فيقول انه كان ثمة ثلاثة رجال عراقيين الى الشمال أحدهم يحمل رشاشاً، ففتح النار على الثلاثة حتى اخر اطلاقة. ثم دخل الرقيب جوزيف وأتم قتلهم جميعاً. كان الرجال الذين قتلهم جوزيف وبنيامين أشقاء ومدنيين وجميعهم أبناء عايد الغريري.

اما الشهود العراقيون من عائلة الغريري فرووا قصة مختلفة. قال الادعاء ان الشهود العراقيين رفضوا ان يحضروا الى الولايات المتحدة ليشهدوا علنا في المحكمة، لكن الإدعـاء حصل على بعض من شهاداتهم المصورة في العراق التي اعتمدها لاتهام شيرات.

قال هؤلاء، ان الجنود المارينز أجبروا الرجال على تسليم أسلحتهم ثم فصلوهم عن النساء والأطفال بتهديد السلاح ثم ساقوهم الى منزل عايد الغريري حيث قتلوهم هناك بدم بارد. كما أردفوا انهم وبعد مغادرة المارينز وجدوا جثث أقربائهم الرجال في إحدى الغرف وقد حشروهم في الكنتور.

في جلسات الاستماع عرض الإدعاء إتهام بنيامين بما وصفه الشهود بالإعدام بدم بارد، وليس كما ادعى شيرات انه قتال إلا ان إتجاهات المحكمة كان هدفها التشكيك في أقوال الشهود العراقيين لغرض تخفيف العقوبة بحق جنود الاحتلال .

5

في نهاية التحقيقات الأولية وجه الإتهام الى أربعة من أفراد قوات المارينز المتورطين في مقتل المدنيين العراقيين، ووجهت إتهامات اضافية لأربعة افراد آخرين لأنهم لم يقدموا تقريراً وافياً بشأن الموضوع.

فقد وجهت الإتهامات بالقتل غير المتعمد لمدنيين عراقيين لكل من الرقيب مارك جوزيف والعريف دونالد كلايتون وعريف اول ديفد بنيامين وعريف اول كينيث دانيال. ولم توجه إتهامات الى آخرين متورطين في القتل وذلك لمنحهما الحصانة مقابل ان يدليا بشهادتيهما تأييداً للإدعاء وهما الجندي الأول مارك ميشال والعريف ادورد ستيفن.

اما اللفتنانت كولونيل وليام الكساندر (43 سنة) قائد الكتيبة الثالثة من مشاة البحرية الاميركية (المارينز) وهو القائد الاعلى للقوات التي كانت حينها في حديثة فقد وجهت له المحكمة العسكرية العليا تهمة الفشل في التحقيق في المجزرة، وعدم تقديم تقرير دقيق الى رؤسائه. وبعد التحقيق جيدا في احداث يوم 19/11/2005 جرى لاحقا توجيه الإتهام الى ثلاثة ضباط آخرين بأمرة ويليام الكساندر لمحاولتهم إخفاء المجزرة.

إدعى محامي الدفاع عن الجنود المارينز المتهمين في هذه القضية بإن المسلحين كانوا مختبئين في المنازل القريبة من مكان الإنفجار، وقاموا بإطلاق النار على الجنود الأميركيين فما كان من هؤلاء إلا أن

ردوا على مصدر النيران في التزام تام بقواعد الاشتباك المعمول بها بموجب أوامر القيادة العليا.

لكن الادعاء من جانبه أكد أنه لم يكن هناك متمردون في البيوت القريبة وأن العسكريين انطلقوا في مذبحة دامت ثلاث ساعات انتقاما لمقتل رفيقهم.

6

بعد أكثر من سنتين من وقوع الجريمة وفي بداية عام 2008 اعلن متحدث باسم البحرية الامريكية ان قائد مجموعة الجنود الامريكيين المتهمين بارتكاب المذبحة الرقيب مارك جوزيف لن يحاكم بتهمة القتل العمد ولكنه سيحاكم بتهم اخرى كالقتل الخطأ والاعتداء الجسيم والتخلي عن واجبه وغيرها من التهم .

أما اللفتنانت كولونيل ويليام الكساندر فقد واجه اتهامات باهمال واجبه لعدم الابلاغ بشكل ملائم والتحقيق في الحادث. وهو المتهم الاعلى رتبة في جرائم الحرب المرتكبة في العراق منذ غزوه في العام 2003. غير ان هذه التهم اسقطت عنه عام 2008 رغم ان الشاهدين العراقيين، كل من د. وليد ود. اياد. شهدا في المحكمة بانهما كعنصرين ضمن وفد وجهاء المدينة الذي قابل الكساندر قائد الكتيبة وابلغه ان القتلى مدنيون أبرياء وطالبوه بالتحقيق بالجريمة ومحاسبة المتسبب.

وفي نهاية عام 2009، احيل جيفري شيساني الى التقاعد، وصادق على القرار وزير البحرية في حزيران من عام 2010. اما الجنود والضباط الاخرين فقد اسقطت التهم عنهم لعدم كفاية الادلة.

7

بعد أكثر من ست سنوات من الحادثة عقدت المحكمة العسكرية الأمريكية جلستها ، للنطق بالحكم بحق آخر جندي من مشاة البحرية (المارينز)، من بين ثمانية جنود جرت محاكمتهم على خلفية إتهامهم بالتورط في المجزرة.

وبموجب صفقة تم التوصل إليها بين فريق الدفاع وهيئة المحكمة، أقر المتهم بأنه مذنب فيما يتعلق بتهمة (التقصير)، على أن يتم إسقاط باقي التهم.

وبذلك اصبح المتهم يواجه حكما بالسجن لمدة ثلاثة شهور في الحد الأقصى بعد اعترافه (بالإهمال اثناء أداء الواجب)!!

هكذا اذاً اصبحت القضية..... مقتل اربعة وعشرين مدنياً بريئاً انما كان بسبب الاهمال اثناء اداء الواجب!!

خفضت الرتبة العسكرية للسرجنت مارك جوزيف، وصدر بحقه حكم بالسجن لمدة تسعين يوما،لكن العقوبة لم تنفذ بموجب اتفاق مع الإدعاء، ولو ان المتهم حوكم بموجب مجموع الجرائم التي

اقترفها لحكم بالسجن مدة 150 سنة، غير ان العقوبة المستحقة قانونا قد اغفلت ليبرأ المجرم ويلتحق بركب رفاقه السبعة (الأبرياء) بنظر المحاكم الأميركية، وهكذا اهدرت دماء العراقيين من نساء واطفال وأرباب عوائل دونما ذنب ارتكبوه .

اما في مدينة حديثة، التي شهدت المذبحة، فقد أثار الحكم الصادر ردود فعل غاضبة في اوساط السكان.

8

اسدل الستار على احداث هذه الجريمة، طويت صفحاتها، بقي جوزيف حرا (فله ثلاثة أطفال بحاجة لرعايته) واقيمت مباراة للكولف إحتفاءاً (ببراءته) في مدينته ميريديان في ولاية كونيتيكت.

حسمت المحكمة الجنائية الأمريكية فلسفة العدالة لديها، تبين أن غايتها حماية جنود مشاة البحرية (المارينز) حتى لو كانوا قتلة!.

لكن ...ماذا عمل العراق لحماية مواطنيه ؟؟

هل انتهت مأساة الأيتام والأرامل؟

والآن.....

منهم من هو بدون راتب تقاعدي، ومنهم من لم يحض بأي حق من الحقوق المترتبة على دولته.

لا زال الاطفال بدون رعاية!!

لا زالوا يعانون من التأثيرات النفسية والاجتماعية الناتجة عن المأساة!

أربع عشرة سنة مررن ثقالاً وهم يعيشون اللحظة التي توقف عندها الزمن.

أما البسطاء من السكان المحيطين (بصعدة الحي العسكري) فقد أيقنوا ان لا شئ يمر في الحياة عبثاً، حتى الظلم الذي ران عليهم، لأجل ان يتعلموا، لأجل ان يعوا، كل العراقيين عليهم ان يعوا !! .... ان يتسع افق تفكيرهم وتتعمق حكمتهم.

شعوب العالم كلها عليها ان تعي أن لا خيار أمامها سوى السلام، السلام الذي يضمن حقوقاً للجميع، لا غزو ولا غزاة لا عبيد ولا أسياد مستعمرين.

نشرت خلال تحقيقات المحكمة الجنائية لقوات المارنز، تقارير سرية داخلية في هذه القوات تبين إنه وجد لدى الجنود (وحتما لدى عدد من القادة العسكريين) أن هناك شعورا لديهم بأن حياة المدنيين العراقيين الأبرياء ليست مهمة بقدر أهمية جنود المارينز، وان مقتل أولئك أمر عادي مهما كان عددهم، وان ذلك عندهم ليس سوى حادث مؤسف وحسب!!

حادث مؤسف !! مثل حوادث المرور او حوادث الطلاق !

تقول المادة الاولى من الأعلان العالمي لحقوق الانسان (يولد جميع الناس احراراً، متساوون في الكرامة والحقوق)

أحراراً ومتساوون!!

الحرية .... والمساواة ..... لكل الناس في هذا العالم!

هما شرف الأمم ... وعصمة النبل البشري

متى يدرك الاقوياء ذلك ؟

يقول بطل العالم بالملاكمة محمد علي كلاي في مذكراته أنه بعد أن أحرز المدالية الذهبية في اولمبياد روما عام 1960 م، دخل مزهواً بتلك المدالية، التي كانت تزين عنقه، الى أحد مطاعم الوجبات السريعة في مدينته ومسقط رأسه (لويفيل) صحبة صديقه روني، قال لنادلة المطعم بفخر: (أنا كاسيوس كلاي بطل اولمبياد روما بالملاكمة) وأشار صديقه الى المدالية الذهبية، لكنها أجابت: (انا أسفة لا نقدم الطعام للزنوج)

رد عليها كلاي بأدب: (ونحن لا نرغب بتناول الطعام عندكم)

يقول كلاي، انه بعد هذه الواقعة لم يعد يعطي اي اعتبار للقيم المادية، وانه أدرك مبكرا، وكان عمره الثامنة عشرة، ان المسألة لا تمسه

شخصيا فقط، لكنها تشمل السود جميعا وان هذه المدالية الذهبية ان لم تكن تعني المساواة للجميع فانها لا تساوي شيئا على الاطلاق.

وقف كلاي بعدها على الجسر الذي يربط طرفي المدينة ونزع مدالية روما الذهبية ورماها في (اوهايو) لتستقر في قاع النهر غير مأسوف عليها .

وقفت على (صعدة الحي العسكري) .....

نظرتُ الى السماء الممتدة على مرمى البصر، غيوم متناثرة كنتف الصوف، تسير الهوينا، تأتي من الافق البعيد، تعبر فوق التلال، ثم البساتين، وتختفي بعد عبور النهر، تبعث شمس الخريف اشعتها متقطعة لتغمر الوديان والبيوت المتناثرة، تبدو الغيوم حزينة والشمس أقل سطوعا، رغم ذلك فان الشمس لن تتوقف عن الشروق بعد كل غروب.

فهرس

الاهداء 5

الفصل الأول: أنين النواعير 7

الفصل الثاني: ذات صباح في حديثة 31

الفصل الثالث: أنتَ لن تَدوم لي! 51

الفصل الرابع: أخاف الذكريات 69

الفصل الخامس: ألفتُ البكاء 103

الفصل السادس: لماذا تعتقلون زوجتي؟ 125

الفصل السابع: الفضيحة الكبيرة 143

الفصل الثامن: ليلة القبض على الضحية 155